كتاب الهلال

تاريخ الحب*
ورسائله الخالدة

بقلم ابراهيم المصري

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصـــدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٤٢ ـ شعبان ١٣٨٢ ـ يناير ١٩٦٣

No. 142 — JANVIER 1963

مركز الادارة

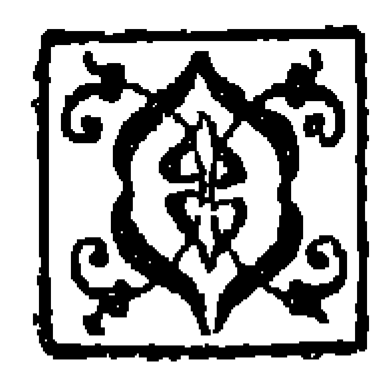
دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربيـــة المتحدة والســودان جنيـــه واحـــــد ــ فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ــ فى بلاد اتحاد البريد العـــربى بالبريد البحرى جنيـــه و ٣٠٠ مليم و (الطائرة) ١٫٧٨٠ ــ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ــ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

تاريخ الحب

ورسائله الخالدة

بقلم

ابراهيم المصري

دار الهلال



تقديم

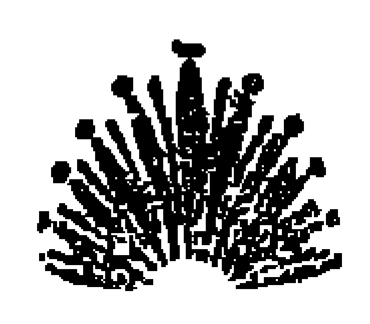
الحب الصحيح عاطفة تلهب فينا خصائص القوة من حيث لا ندرى . فاذا كنا فقراء هزأنا بالجوع وتحدينا القدر ، واذا كنا بلهاء تفتقت اذهاننا واضطرمت فينا شعلة الذكاء . واذا كنا كسالى سرى الدم الحار فى عروقنا واقبلنا على العمل بعزم دائب عنيد ... وعندئذ نحمل ثمار العمل والجهاد ونلقي به عند قدمى محبوبنا . فينظر الينا المحبوب مبهورا ويقبلنا .. فنشعر فى تلك اللحظة ان هذا المحبوب العزيز القاسى هو الذى رفعنا وبدلنا واحيانا جعل منا نحن البشر الضعاف مقاتلين وابطالا .

فالحب الصحيح قوة لا تنشد المتعة الحسية فقط ، لان المتعة المجردة هى تبذل وتدهور وانانية . اما الحب الصحيح فجهاد وبذل وتضحية .. لهذا لا يثبت على الحب الصحيح الا كل من سمت نفسه ، وعاف التقلب والتلون وطلب الملذات ، وكان فى طبعه وخلقه وروحه من المكتفين المتعففين الاقوياء . وكلما كان الانسان فقير العقل محدود افق الفكر والخيال ، كان شهويا وحسيا واقرب فى حبه الى الفطرة البهيمية . وكلما كان مستنير الفكر ، موفور الثقافة ، وواسع أفق الخيال ، كان اكثر استعدادا الى الحب العاطفى ، وادنى الى اعتبار الحب علاقة لا تربط بين جسدين الا لتؤلف بين قلبين وعقلين وروحين فى عالم معنوى رائع تنعكس فضائله على الاسرة والمجتمع كله .

فالفكر يهذب الفطرة ويؤثر فى الجسد ، كما أن انعدام الثقافة والفكر يطلق الفطرة من عقالها ويجعل الانسان عبدا للجسد

بهذه الروح اهتدينا فى جمع مواد هذا الكتاب . وقد عرضنا فيه تلخيصا مركزا للمؤلف الشائق الذى وضعته الكاتبة الفرنسية « مارسيل تينير » عن « تاريخ الحب » ، وطائفة مختارة من أشهر رسائل الحب الخالدة ، وبعض قصص عالمية تعتبر من اروع قصص الحب فى الادب الغربى ، وبهذا يتم للقارىء استجلاء سر عاطفة الحب الابدية ، والوقوف على شتى العوامل التى ساهمت فى تكوينها ، ومتابعة تطورها وارتقائها منذ فجر التاريخ حتى اليوم

ابراهيم المصرى



الباب الأول

تاريخ الحب

عن كتاب
للكاتبة الفرنسية
مارسيل تينير

ما هو الحب؟

ان الحب العاطفى كما نفهمه اليوم ، لم يولد مع الانسانية كالجوع والظمأ والخوف والرغبة الجثمانية المحضة . والواقع ان الانسان الاول فى عصر المغاور والكهوف ، كان يخضع لغريزته الاصلية وكان يرضى عن نفسه متى امتلك الانثى امتلاكا طبيعيا عاديا . وكانت المرأة الاولى ذات الثدى المترهل والخاصرة العريضة تعيش تحت حماية الرجل وتطلب هذه الحماية مدفوعة الى ذلك بمتاعب الجنين الذى تحمله فى احشائها أو بمتاعب الحمل والوضع والارضاع . وكانت خاضعة للرجل كل الخضوع ، لا تتبرم بعبوديتها ولا تشعر بها ، لان الرجل كان شبيها بالحيوانات لا يضطهد امرأته ولايعذبها ولايستبد بها الا متى فكر فى اختطافها وحيازتها لنفسه

والحقيقة ان اجتراء الزوج على التنكيل بامرأته وضربها، لم يظهر الا بعد أن قطعت الانسانية شوطا من الحضارة

ونحن مانزال نشهد حتى اليوم أزواجا يضربون زوجاتهم فيقول البعض منا ان هؤلاء الازواج قد عادوا الى حياة الفطرة وارتدوا الى قانون الطبيعة . ولكن هذا محض خطأ .. لان النمر لا ينكل بالنمرة والاسد لا يستبد

باللبؤة ، والمشاهد على النقيض أن القطة العاشقة هى التى تخدش بأظفارها أنف القط وهى التى تنكل به لتثيره وتجذبه اليها

وعليه ففى غضون الزمن الذى قضاه أسلافنا فى المغاور يحيون حياة الفطرة ، كانت العلاقات بين الجنسين بسيطة غير معقدة ..

كانت تتلخص فى المطاردة ، ثم الامتلاك ، ثم الحمل ، ثم الوضع ..

ولم يكن فى وسع الرجل والمرأة أن يتشبها بالحيوانات، فينفصل الواحد منهما عن الاخر بعد الانتهاء من تربية أولادهما وبعد أن يشب هؤلاء الاولاد عن الطوق . وذلك لسبب بسيط وهو أن الطفل لا يكبر بسهولة ولا يترعرع بين يوم وليلة ، ولا بد للأب والأم من السهر الطويل عليه حتى ينمو ويشتد ساعده ..

فالوالد كان والحالة هذه مضطرا الى حماية الام ، أو الى حماية الامهات زوجاته ، لانه كان يكثر فى الواقع من الزوجات ويتنبه آخر الامر الى أنه قد أعقب منهن عددا كبيرا من الأبناء ..

وكانت نساء الرجل فى العصور الأولى أشبه بقطيع مقدس . وكان مستقبل القبيلة منوطا بهن . وكان الزوج ولا شك يحبهن ، كما تحب الاشياء اللطيفة الثمينة التى يشتهيها الآخرون والتى جعلتها العادة ضرورة

ولقد زعم بعض الرحالة المستكشفين أن الغوريلا الافريقى يمتاز بكونه زوجا صالحا وأبا طيبا ، وأنه يبنى وكره فى الأغصان العالية ويحمل فى هذا الوكر عائلته

ويظل هو تحت الشجرة ساهرا عليها متأهبـــا للدفاع عنها

وفى استطاعتنا أن نعتقد أن الرجل الأول كان على هذه الشاكلة ، ولكنه لم يكن شبيها بالغوريلا لانه كان لا يعرف البساطة المطلقة التى يتمتع بها ذلك الحيوان

كان الرجل الأول يفكر ولا ريب أو يجتهد فى التفكير والتروى . وكان يتلون ويتقلب ويستنكر نظام الاشياء ، ويطلب أحسن مما فى يده وهو لا يســـتطيع أن يعين فى شكل واضح حقيقة ما يطلب

وهكذا تطور هذا الرجل مدفوعا بسلطان عقله ، وتاقت نفسه الى معرفة الأسباب التى أوجدته ومعرفة المصير الذى سوف ينتهى اليه .. فتولد فى قلبه الشـــعور الدينى ، فشاد الهياكل لآلهته واخترع الفنون وهو يحفر الصخر ويشذب الاخشاب . وكما ابتدع الفن ابتدع الحب العاطفى أيضا

ففى اليوم الذى عدل الرجل الاول عن اختطاف الانثى الشابة ، وآثر أن يستميلها بالحسنى ويقدم اليها عقدا من العظم أو القواقع كى تعطف عليه وتمنحه ذاتها « من تلقاء نفسهـــا » فى اليوم الذى تمنى الرجل الاول أن يفوز من الانثى بابتسامة أو دعابة أو شبه احساس يدل على أنها عطفت عليه ومالت اليه بمطلق حريتها ، فى ذلك اليوم انبثقت عاطفة الحب وولدت من صـــلب البهيمية الوضيعة الاولى

وهذا طبيعى .. لأن الحب فى الاصل يقوم على التفضيل والايثار ، على تفضيل شخص على آخر تفضيـــيلا يجهل

العقل بواعثه وأسبابه . ومن هنا كانت قوة الحب وتعلقه المفاجىء وسرعة تقلبه أيضا ..

ولكن تفضيلنا شخصا معينا يتطلب من هذا الشخص أن يفضلنا نحن أيضا على سوانا ليتم الحب .. فهذا التفضيل المتبادل يستلزم حرية فى الاختيار ، وحرية فى القبول والرضا

وإذن فالرجل المتوحش الأول أراد على مر الزمن أن تختاره المرأة بملء حريتها .. أراد أن ينعم بهذه اللذة الجديدة .. أراد أن يعتقد ان المرأة اختارته لانه أقوى واجمل من سواه .. وهكذا ابتدع الحب ، وأراد أن يكون محبوبا ..

وشعرت الأنثى أن هذا الانقلاب جاء فى مصلحتها ومصلحة جنسها ، فماذا فعلت ؟ استغلت موقف الرجل .. ارادت ان تزيده تعلقا بها فتمنعت وتدللت وأعرضت وتركت عقد العظم الذى قدمه اليها بصفة هدية ، يقع منها ، ثم فرت واختفت خلف الاشجار وقبعت هناك وظلت تنظر الى الرجل وهو مقبل عليها ، وقد ثارت ثائرته واحتدمت كبرياؤهوعصف بهالغضب.. ولما دنامنها وقبض عليها قاومته واجترأت عليه وفعلت كما تفعل الهرة ، أى خدشته بأظافرها فى أنفه . ثم استسلمت له ولسان حالها يقول :

ــ انت أجمل وأقوى وأفضل من الآخرين ! ..

وصدقها الرجل .. أما هى نفسها فلم تعرف حتى الآن مبلغ صدق عاطفتها فى تفضيل رجل على رجل وانسان على انسان !

وهـــكذا ولد الحب أو جـرثومة الحب الذى عرفته الانسـانية فيما بعد ، وكان فيه فرحها ومنه شقاؤها .. !

وكان لا بد من انقضاء قرون طوال قبل أن يتخذ الحب المظهر الذى ألفته الحضـارة الحديثة .. والواقع أن كل زمن وكل جنس وكل شـــعب ، جلب الى عاطفة الحب طابعا جديدا وأضفى عليها لونا معينا ولغة خاصة ..

والغريب أن كل عاشق حاول أن يخلق الحب خلقـا جديدا ويبدعه ابداعا مستقلا يتفق مع أهوائه وميوله .. ومع ذلك فقد ظل الحب هو هو لا يتغير ..

ظل غريزة جنسية تجملها افانين الخيال وتخفف من حدتها ، وتحمل الانسـان عـــلى تناسـيها أو نسيانها ..

ولقد عرف الروائى « بلزاك » الحب بأنه « شـــعر الحواس » وقال عنه العلامة « لويس مينار » أنه « طفل يريد أن يولد » ووصفه الفيلسوف « شـــوبنهور » بأنه « شرك نصبته للانسـان غريزة النوع » . ولكن أليس فى وسعنا أن نقول بكل بساطة ان الحب هو المخيلة الشعرية مضـافة الى الغريزة ؟ .. الحق ان الغريزة الجنسية ، أو غريزة النوع ، تكفى لنصب الشرك الذى يقع فيه الرجل والمرأة والذى يدفع بهما الى انتاج النســـل • ولكن هناك حبا يظل حيا بين الرجل والمرأة ، بدون انتاج نسل ، وبدون أن تسيطر عليه غريزة النوع .. هناك حب يتغـــذى من نفسـه ، ويعيش من المخيلة الشعرية والفنية أضـــعاف ما يعيش من غريزة النوع . بل ان غريزة النوع قد تهدمه ، وانتاج النسـل قد يقضى عليه . كما نشاهد ذلك فى بعض العائلات التى قام فيها الزواج على أساس مادى محض ،

وبمعزل عن عاطفة الحب كما بسطناها باعتبارها وحدة مؤلفة من الغريزة والمخيلة أى من المادة والروح ..

وليس شك فى أن الحب يؤثر الفوضى على النظام ، ويفضل الحرية على التقيد بنظام الزواج وفروضه الثقيلة التى لا علاقة لها بالحب . ولكن الحب لا يسمو ولا يرقى ولا يرتفع الى فضائل الحنان الرائع والتضحية العظيمة الا فى دائرة الزواج الصالح ، حيث تفتر حدته الهدامة ، ويستحيل مع الزمن الى شبه صداقة ثمينة مفعمة بشعور التفاهم والولاء ..

ولقد تفرعت من عاطفة الحب عواطف أخرى أحدثت أبلغ الأثر فى حياتنا المتحضرة .. تفرعت منه عاطفة العفة عند النساء ، لان المرأة التى تحب حقا لابد أن تعف عن الرجال جميعا ما خلا الرجل الذى تحب . وتفرعت منه أيضا عاطفة الغيرة ، لا الغيرة التى كان يعرفها الانسان المتوحش والتى تنحدر من الشهوة ، بل الغيرة العقلية التى نشعر بها عندما نبصر المرأة التى نحب تمنح عطفها وحنانها ورقتها لرجل آخر ..

وتفرعت من الحب فوق ذلك عاطفة التسامى بالغريزة البهيمية والرغبة فى كبحها والارادة الصادقة فى الاتجاه بالحب نحو عالم أنقى وأطهر من هذا العالم ..

واذن فالحب ، بما تفرع عنه من عواطف رائعة ، ساعدنا على التحضر وساهم فى تهذيب نفوسنا وأجبرنا كلما قطعنا شوطا جديدا فى ميدان التحضر ، على نسيان أصله الوضيع وعلى اعتباره سرا أو معجزة !

فالرجل المتحضر حقا يؤخذ بالجانب الروحى من الحب وقد يتصل بالله نفسه على ضوء الحب ، وقد يقوم بأجل

وأخطر الاعمال مهتديا بهذا الحب ..

والحقيقة أن الرجل المتحضر لا يكتفى بالعلاقة الجنسية أبدا .. بل ينظر الى ما وراءها ، الى ما يمكن أن تسفر عنه من سمو الحياة وارتفاع بالنفس من حضيض الارض الى رحبات السماء ..

فبوساطة الحب الروحانى المسيطر على قوى الغريزة ، يطمح الانسان المتحضر الى التفوق على نفسه وطبيعته من طريق احتمال الألم والاقدام على التضحية والمثابرة على الولاء والاخلاص والتطهر من رذائل المواربة والختل والنفاق ، وهكذا يتقدم شيئا فشيئا نحو البحث عن الفضيلة المثلى أى عن الله !

الاباحية البغيضة ..

كان أهل القرن الثامن عشر فى فرنسا يؤمنون بنظريات جان جاك روسو ، ويعتقدون بأن الانسان الطبيعى المتوحش هو انسان طيب ، وأن زنوج افريقيا لا يختلفون عنهم الا فى اللون فقط . وكانوا لا يقومون برحلات يتحققون فيها من صدق هذه النظرية أو فسادها . فلما هبط بحارة «بوجانفيل» الى جزيرة « تاهيتى » وشاهدوا الأخلاق والعادات فيها أدركوا أن حياة الشعوب البدائية لا تمت الى حياتهم بأية صلة ..

تحققوا أن البكارة لا وجود لها ، وأن ولاء المرأة للرجل واخلاص الرجل للمرأة أشياء مستغربة لا تشرف صاحبها كما تشرف الفرد المتحضر ..

تبينوا أن العفة لا أثر لها وأن الحكم للغريزة الطاغية العمياء ، فعدلوا نظرتهم الى الانسان البدائى وأدركوا أنهم قد قطعوا شوطا بعيدا فى ميدان التحضر ..

أبصروا العلاقات الجنسية فى تلك الجزيرة متراخية والملذات سهلة والاباحية المرذولة منتشرة .. فأدركوا أن سهولة الملذات تقتل اللذة وتقتل الحب لأنها تمزق ذلك الثوب التخيلى الشعرى الجميل الذى يخلعه المتحضر على غريزته الحيوانية ليهذبها ويسمو بها ..

وفى الحق ماذا يصبح الحب اذا انتشرت الاباحية البغيضة ، وكانت كل النساء لكل الرجال ؟ ماذا يصبح الحب ، وكيف يتم الاختيار ، وكيف يتحقق التفضيل ، وكيف ينشأ بين الرجل والمرأة ذلك الاخلاص العميق المؤدى الى شتى الفضائل ؟ ..

لاشك أن الحب يظل رغبة جنسية تموت بمحض ارتوائها ، ولاتنتج للمجتمع أى فضيلة ..

وحيث لا يكون الحب العاطفى القائم على التفضيل والاختيار ، ينعدم احترام المرأة وتفقد كرامتها ..

والدليل على ذلك أن قبائل الاسكيمو التى لا تعرف الحب ، تقدم نساءها هدية للضيوف وتكريما لهم ، وأن قبائل البوشيمان تتناسل فيما بينها دون ما قاعدة أو قانون ، ولا تعرف الزواج ولا تعرف العائلة لأنها لاتعرف الحب ، وكذلك كانت قبائل الهنود الحمر القديمة أيضا ..

ولقد ذكر الرحالة « كارفر » أنه شاهد فى أمريكا الشمالية فى احدى قبائل الهنود الحمر ، امرأة متوحشة غنية وقوية البدن عرضت نفسها بمقتضى عادة قديمة للزواج من جملة رجال دفعة واحدة . ولكن من الخطأ أن نسمى مثل هذه العلاقة زواجا لانها لا تلبث أن تنعقد

حتى تنحل بمحض رغبة الاقوى والاغنى من الطرفين ..

والذى لا شك فيه أن الشعوب التى فشت فيها عادة اقتران المرأة بعدة رجال ، هى شعوب لاتكاد تعرف الحب ولا نظام الاسرة ولا يمكن أن يستقيم فيها هذا النظام ، لان حب المرأة لازواجها لا يمكن أن يكون غير ضرب من ضروب غريزة الملكية فى أوضح أشكالها ..

والواقع ان المرأة — سواء اباعتها أسرتها للرجل ، ام اختطفها الرجل بعد معركة شكلية أو حقيقية كما يحدث فى بعض القبائل — لابد أن تصبح بعد الزواج عبدة للرجل ، لا حقوق لها على نفسه وقلبه . وعندئذ تضطر هذه المرأة للكذب والنفاق والتذرع بالدهاء والحيلة واستخدام محاسنها ومكرها الطبيعى للتغلب على الرجل ان استطاعت ، والاحتفاظ به لنفسها بأية وسيلة ما دام يرفض أن يحبها ويبادلها العواطف ويعترف لها بحريتها فى منح ذاتها

وعلى الرغم من كل هذا ، فالمرأة تتمتع عند بعض زنوج افريقيا بحرية نسبية نظرا لانصرافهم الى نوع من الحياة الزراعية شبه المتحضرة .. هؤلاء الزنوج يعرف الابناء منهم كيف يحترمون أمهاتهم، ويعرف الرجل كيف يتعلق بامرأته أم أبنائه ، ويعرف أفراد الأسرة كيف يتضامنون لانجاز العمل أو اتقاء الخطر . وقد لا يكون عطف هؤلاء الزنوج المقرون باحترامهم للمرأة هو الحب ولكنه على كل حال عاطفة أرقى من الغريزة واحساس أسمى من مجرد الشهوة ..

وهذا هو الفارق بين البدائى والمتوحش ..

فهؤلاء الزنوج ، ولا سيما زنوج السـنغال مثلا ، جاوزوا طور التوحش وأصبحوا بدائيين . وأما أولئك الذين أشرنا اليهم سـالفا ، فما يزال معظمهم فى طور التوحش الأول يعالج أحكام الغريزة ويجاهد للفـكاك منها ..



الحب فى مصر والشرق

منذ العصر الذى نقشت فيــه أول الرســـوم على الأحجار ، حتى العصور التى عرفها التاريخ ، وســجل حضاراتها القديمة ، تنبسط منطقة كبيرة مجهولة يبدو أنها خالية من الاحــــداث . ولقد احتفظ التـــاريخ مــن العصر القديم بظواهر امتازت بهـــا مصر منذ عهود الاسر القديمة .. وأهمها تكريس النساء لخدمة اله الحب أو الهة الحب . وهـــذا التكريس الدينى تقدم الــزواج ، وحدد نظاما خاصا للنساء اللاتى كــن ملكا مباحا لجميع رجال الطائفة أو القبيلة .. كان أبناء المرأة أبناء الجميع . وكانت صلة النسب ترجع الى المرأة لا ألى الرجل . وكانت أرق وألطف عاطفة يتمثل بها عاشقان هى عاطفة الحب بين الأخ والاخت

ولقد كان العاشق فى مصر القديمة ينادى معشــوقته ب « يا أختى » وهى اذ تخاطبه تقول : « يا أخى » .. وكل الشعر المصرى الفرامى القديم ينحصر تقريبـــا فى هذه الاخوة المضطرمة ..

وتطور المجتمع المصرى ، وظهـــر الزواج .. وكانت المرأة المصرية اذ ذاك مميزة عن جميع اخواتها الشرقيات واكثر منهن تمتعــا بحريتهـــا . كانت تتمتع حتى وهى

متزوجة بحقها فى التصرف بثروتها . وتحمل اسما خاصا معناه « سيدة البيت » . وكانت لا تسكن مع زوجها بل تستقبله فى بيتها هى كضيف مفضل ممتاز . ولكنها كانت تقبل أن يكون لزوجها عدة زوجات غيرها ، تحيا كل منهن فى بيتها المستقل . وأما أبناء هؤلاء النساء ، فكان يعترف بهم جميعا كأبناء شرعيين . وكان المصريون يحاولون اقرار العدل بين نسائهم ، رغبة منهم فى ضمان السعادة بعد الموت فى الحياة الأخرى ..

ولم تكن العلاقات الغرامية عند المصريين القدماء علاقات هوى مشبوب يمازجه القتل وسفك الدماء بل علاقات جنسية طبيعية يلطف من حدتها نوع من الحنان المداعب الرقيق ، كما تدل على ذلك اشعارهم التى كشف العلماء عنها ..

كانت أثواب الفتى والفتاة شفافة رقيقة ، وكانا لا يجهلان سر العلاقة الطبيعية . وانى لأتصورهما .. أتصور الفتاة المصرية شبيهة بمغنية معبد آمون ، اتصورها كالفتيات اللاتى رأيتهن فى صعيد مصر دقيقات التقاطيع رقيقات الملامح مكحلات العيون باسمات متفززات ..

اتصورها مثلهن ، واحاول ان آبعثها واضفى عليها غلالتها الشفافة القديمة التى يبرزمنها عنقها اللين وتتراءى من خلالها اوضاع بدنها الغض ..

أحاول احياءها ، فأناولها القيثارة رسمت عليها مختلف الوجوه وشتى العصافير .. ها هى ذى حية ! وها هى ذى تغنى قصيدة من الشعر المصرى القديم .. فاستمع اليها تقول :

« يا صـــديقى الجميل .. اتمنى أن اعيش واياك كامرأتك ..

« أتمنى أن تضـع ذراعك على ذراعى وتمضى وفق هواك . وعندئذ أشكو لقلبى المحبوس فى صـــدرك كل آلامى ..

« لو انك يا اخى الاكبر لا تزورنى الليلة فلابد أن اصبح كسكان القبور ..

« أولست أنت الصحة والحياة ؟ أولست انت حامل الفرح والصحة الى قلبى الذى يبحث عنك ؟ ...

« ان جماهير الاطيار تتلاقى على النهر ، ولكنى أنصرف عنها ولا أفكر الا فيك يا غـــرامى .. لأن قلبى معقود بقلبك أنت ! »

هذا ما غنته الفتاة المصرية العاشقة فاســـمع الآن اغنية الفتى المصرى العاشق :

« أريد أن أرقد فى حجرتى لانى مريض بسببك ولان الجيران قد وفدوا لزيارتى

« آه لو ترآفقهم اختى ، اذن لاستطاعت رد الاطباء عنى لأنها وحدها تعرف سر مرضى ! »

هكذا كان العشاق فى مصر القديمة، يتبادلون الشكوى ويمزجون الاغانى بالورود والأطيـــــار .. كان البط والسنونو واليمام يرفرف ويطير من خلال أغانيهم التى لا تمتاز بعظمتها ولا بعمقها ، بل بملاحتها الســـاحرة ورقتها العميقة وعذوبتها الفاتنة ..

ولم يكن حظ الفارسيات والأشوريات والكلدانيات سعيدا كحظ المصريات اخواتهن .. كان الاستبداد شائعا فى تلك الممالك ، وكان جبابرتها يسحقون الشعوب كما تسحق فى الخابية حبات العنب .. وكانت نساؤها جد شقيات تعسات ..

ولقد تمتعت المرأة الكلدانية فى عهد بعيد بشىء من الاستقلال والحرية .. ولكن هذه الحرية لم تدم ..

تبدل طابع الزواج فكان الرجل يشترى المرأة ويعتبرها متاعا له ..

كان فى وسع الكلدانى أن يطلق بمجرد كلمة يقولها .. وكانت الزوجة تلقى فى الماء متى تجاسرت على انتهار زوجها فى ساعة غضب ..

وأما المرأة الزانية ، فكان يقطع رأسها أو تطرد ويلقى بها شبه عارية أمام الباب يستبيحها من شاء دون رحمة ..

ولكن الزوجات الموسرات كن يتقين هذه الاخطار ، بفضل مالهن ويستخدمن كتابا مهرة يعرفون كيف توضع فى عقود الزواج بعض نصوص تفسر على الدوام فى مصلحة الزوجة ..

وكان ملوك تلك البلاد يقترنون بالنساء ، ثم يغدرون بهن ويسلمونهن الى الجلاد .. كانوا من كبار الصيادين وكبار القتلة ، وأشكالهم المنقوشة على جدران قصورهم والبارزة منها عيونهم الوحشية الكبيرة واثوابهم المجعدة ومظهرهم المروع ، وهم يسحقون أعداءهم تحت عجلات مركباتهم الحربية ، لا تبعث فى نسائنا عاطفة الأسف على أنهن لم يعشن فى تلك العصور حيث كانت المرأة تطرد او

تذبح بعد أن يقضى الرجل منها لبانته ..

ومع ذلك فقد عرفت قصور نينـــوى وبابل ملكات عبقريات وضعن نعالهن الموشـيات بالحرير على رءوس ملوك كانت ترتعد أمامهم الفرائص ..

فالملكة اتوسا أخضـــعت الجبار قمبيز ، والملـــكة استريت سحرت لب الملك المزهو المريض كزرسيس ، واليهودية استير عرفت كيف تغزو قلب الملك احشورش



الحب عند الاغريق

استولت الدهشة على أول فوج من السياح الاغريق الذين زاروا مصر القديمة عندما شاهدوا المرأة المصرية. ولما عادوا الى بلادهم ، بالغوا كثيرا فى وصف ما شاهدوه على ضفاف النيل ، وقالوا ان المرأة المصرية سيدة مطلقة فى بيتها وأن الرجل متى تزوجها اقسم على طاعتها والاخلاص لها ..

وقد ترتب على هذه الدعاية ان حسدت الاغريقيات نساء مصر ، وتمنين لو استطعن الحياة على غرارهن ..

وكانت الاغريقيات محجبات فى البيوت على مثال الآسيويات فى دور الحريم . وكان الرجل الاغريقى غيورا كل الغيرة على حقوقه كمواطن ورب عائلة ..

ولم تكن لنساء الاغريق اذ ذاك اية حقوق عامة .. وكان رجالهم ينظرون نظرة الاستنكار الى اختلاط الجنسين فى لاسيديمونيا ، واشتراك الفتيات والفتيان فى الرقص والالعاب الرياضية . وكان ليكورجوس يرى فى هذا الاختلاط عاملا من عوامل تخفيف حدة الشهوات ورقى العادات والاخلاق ، وحفز الشبان الى التمسك بالعفة عن طريق الالعاب الرياضية . ولكن رجال الاغريق فى مختلف المدن الاخرى ، كانوا يرون غير هذا الرأى ولا

يؤمنون بتلك العفة التى لا حياء لها والتى لا تتحقق الا من طريق اختلاط الجنسين

وكانوا يربون المرأة الاثينية لتكون زوجا صالحة تسهر على اعمال البيت وتحتجب فيه •• ولم يكن يسمح الا للرجال أقاربها بالدنو منها والتحدث اليها ••

فهل كانت تفكر اذ ذاك فى الحب ؟ .. وفيم كانت تفكر ؟ ..

كانت تسترسل فى تأملات العزلة ، وكانت الاغانى والاساطير وقصص الآلهة تقوم عندها مقام الروايات التى تطالعها أو تشهدها النساء اليوم ••

ولاشك أن المرأة الاثينية كانت تلمح اثناء زياراتها لاقاربها أو صديقاتها عددا من الشبان ذوى الجمال الرائع ، ولكن التحدث الى هؤلاء الشبان كان متعذرا عليها . ومع ذلك فقد كانت لفرط عزلتها واحتجابها وتطلعها الى الحياة ، تسعى لمعرفة أسماء أولئك الشبان وانسابهم ومواهبهم والنجاح الذى أحرزوه فى ميادين الالعاب الرياضية •• فكان ينتهى بها الامر الى الاقتران بواحد منهم ..

وكانت الاثينية تقبل على حياة الأسرة بنفس متأهبة للعطف والحنان ، لانه لم يكن فى مقدورها أن تتصور الحب دون زواج أو تختار بنفسها الزوج الذى تريد ..

كانت مهيأة للزواج بدون حب ، وكان والدها هو الذى يختار الزوج ويجبرها على قبوله فى بعض الاحيان حرصا على مصلحتها .. كما تفعل طائفة كبيرة من الآباء حتى اليوم

ولم يكن مسموحا بالتزوج بأكثر من امرأة واحـدة ، ولم يكن فى وسع الاثينى أن يقترن بغير الاثينية .. وكان لا يرث الوالد غير أبنائه الشرعيين ، وكان لا يعترف بأبناء المحظيات والعشيقات والسرارى ، بل يجتهد فى حمـاية الزواج الشرعى خدمة للعائلة نفسها ..

فالزوج الشرعى كان رئيس الاسرة وسيدها .. وكانت الزوجة تتـولى شـئون البيت ، وتبـذل قصـاراها فى الاحتفاظ بقلب الرجل واخضـاعه لسلطانهـا .. تارة بالحيلة وتارة بالصياح والبـكاء والاعتمـاد المطلق على محاسنها . وكان معظم أولئك الازواج ذوى القوة والبأس فى ميادين القتال ، يستسلمون لزوجاتهم فى البيت طلبا للهدوء والراحة ثم يطلقون العنان لنزواتهم فى الخـــارج متى سنحت الفرص ..

كانوا يخدعون زوجاتهم لان الزواج لم يكن قائما على الحب ، ولان التعارف بين الخطيبين كان محظورا قبـل الزواج ، ولان فكرة الزواج نفسها كانت بعيدة عن الحب كل البعد ...

ومع ذلك فقد كان يحدث أن يتولد الحب اتفـاقا فى دائرة الزواج ، فيتم تقارب القلبين ويعيش الزوجان فى سـعادة كمـا عـاش ادميت والسيسست ، وهيكتـور واندروماك ، وفيليمون وبوسيس ..

ولقد قص علينا كزينوفون حكاية زوجين تمت لهمـا سعادة الحب .. حكاية المواطن الشريف ايشوماك الذى تحدث الى الفيلسوف سـقراط عن زواجه ، وكيف انه اقترن بفتاة فى الخامسة عشرة من عمرها فما زال بهـا يعلمها ويهذبها ويرشدها الى واجباتها البيتية ويهديهـا

الى خير طريقه تدير بها أمواله وتعامل بموجبها خدمه وعبيده ، حتى أصبحت مثال المرأة الطيبة العاقلة الكاملة، وأدركت أن زوجها ليس بسيدها بل صديقها وأنها امرأة لها عقل وكرامة واحساس ..

والبديع فى هذه القصة أن روح المساواة بين الرجل والمرأة ، وان اختلفت وظائفهما ، تتجلى فيها بأكمل معانيها .. فالزوجة كانت معجبة بزوجها الذى قدرها ، حريصة على طاعته ومرضاته ما دام ينشد سعادتها ..

والزوج كان يعترف بشخصيتها ويخلص لها .. ويتسامح معها فى مبدأ الامر ، متى ارادت تجميل وجهها بالمساحيق ، ثم يراجعها فى لطف ويجتهد فى اقناعها بأن جمالها الطبيعى أوقع فى نفسه ، وان اغتسالها بالماء النقى يزيد فى بهائها ويجعلها كالزهرة جلاها الندى ..

لقد فهمته الزوجة الشابة آخر الامر ، واذعنت له واحست الحب والسعادة بقربه.. فأصبحا يمثلان الحب الزوجى كما ينشده الناس فى ربيع الحياة ..

ولكن كلّ الازواج فى ذلك العهد ، لم يشبهوا ايشوماك فى سعة عقله وحسن حظه ..

كان بعضهم يضجر من حياة البيت ، أو من رفقة زوجة لم يعرفها قبل الزواج ، أو من قرب امرأة دميمة اقترن بها بدافع المصلحة ، أو من معاشرة أنثى غاض شبابها وعجلت الحياة الزوجية بشيخوختها .. فكان يغادر البيت ويقضى معظم الاوقات فى الخارج يتحدث الى المواطنين فى الشئون السياسية أو يقصد ـ متى كان موسرا ـ الى دور البغايا ..

وكان البغاء شراكبيرا ، ونظاما بغيضا ، ونتيجةمحتومة لأسلوب الزواج عند الاغريق ..

وكان الزواج المجرد من الحب والمعقود بين شخصين يجهل أحدهما الآخر ، مؤديا فى أغلب الاحيان الى انطلاق الزوج فى فسحات العشق المحرم بين النساء المتبذلات صائدات القلوب وبائعات الهوى ..

وكانت البغايا ذكيات العقل ، ماهرات ، خبيثات ، يعرفن كيف يخاطبن الرجل المتعلم والشاب الغنى والفيلسوف الكبير والفتى الوارث المغرور الذى ينفق عليهن عن سعة ثم يبوء منهن بالصد والاعراض ..

ولقد حدث فى عهد الاغريق أن وجد بين أولئك البغايا نفر من النسوة الممتازات بالعقل النابه والفكر المتوقد والاحساس القوى ، والرقة العاطفية الثمينة ، كاسبازيا التى عشقها بيريكليس وتدله بها وطلق امرأته وتزوج منها .. ثم أحبها غاية الحب ، فكان لا يخرج من بيته الا آسفا على فراقها ولا يدخله دون أن يقبلها . وكان سقراط يزورها ويعجب الاعجاب كله بدماثة أخلاقها وحسن ذوقها ولمعان ذهنها ..

ولكن اسبازيا كانت نادرة بين أترابها .. وتفوقها بعقلها وذكائها لا يدل على أن نظام الحياة الزوجية الاغريقية كان صالحا ، أو على أن الرجل الاغريقى كان يجد فى مجتمع البغايا شيئا آخر غير الضعة والاسفاف والتعرض لشر المخاطر النفسية والبدنية ..

الحب عند الرومان

كانت روما ، فى عهد ملوكها الاولين ، لاتحفل بالحب على الاطلاق

كانت الزوجة تغزل الصوف ، وتحرس الدار ، وتجل زوجها اجلالها لوالدها

ولقد ظل الطلاق قائما من الوجهة النظرية نحو ٢٣٠ سنة ، ولكن أحدا من الرجال لم يفكر فى الانتفاع به والالتجاء اليه

كانت الزوجة الرومانية تابعة لزوجها ، ولكنها كانت من الوجهة العملية أكثر حرية من المرأة الاغريقية وأوثق اتصالا بحياة زوجها

كانت مواطنة مثله ، تقاسمه نفس البيت ، وتستقبل اصدقاءه ، وتهتم بحياته العامة وما يدور فيها . وتشعر شعورا بالغا بما عليها من واجبات ، وتعيش فى شبه فضيلة صارمة حازمة

ومن المعروف أن الرومانيين كانوا يخلصون للدولة كل الاخلاص ، ويضعون الدولة فوق كل شىء .. وكان الجنود منهم والمتشرعون وأرباب الاسر يحيون حياة متقشفة قاسية ، ويقتصدون حتى البخل ، ولا يعبدون غير القوة

لم يكن لهم شعراء ولا فنانون • كانوا رجال تشريع وتنظيم وقتال فحسب

ولقد ثأرت منهم اليونان فيمابعد عندما انتصروا عليها، فانتشرت بينهم الاخلاق والعادات الاغريقية فأسرفوا فيها فأفسدتهم وعجلت بانحطاطهم .. وأما الشعراء فقد ظهروا فى روما بعد أن تغلبت روما على اليونان • وكان أولئك الشعراء أنفسهم تلامذة اليونان ، واما أرباب الفنون فكان معظمهم من صميم اليونانيين

والحق أن قيصر لم يكن مثلا أعلى فى الفضائل البيتية وكذلك أوكتافيوس •• ولقد استطاعت كليوباترة المصرية الاغريقية ذات الانف المتقلص الصغير ، والسحر النسوى النادر ، والذكاء العقلى المضطرم ، أن تفوز بحب قيصر ردحا من الزمن ، وأن تخضع لفتنتها ماركوس انطونيوس مدة طويلة ..

ويعرف القارىء ما وقع لذلك القائد الجميل ، وكيف كان مصيره بعد أن ضحى بشرفه كجندى ومواطن رومانى فى سبيل معشوقته كليوباترة

لقد غمرته بسحرها الشرقى ، وأوقدت أعصابه ، وافنت آرادته ، وعرفت كيف تتجدد على الدوام فى عينيه وتكون عدة نساء فى امرأة واحدة •

هكذا كانت المرأة الشرقية • أما الرومانية فكانت شديدة الصرامة باعثة على الضجر ، لاتحسن أخذ الرجل والتسلط عليه اذا ما قيست بالمصرية •

فعندما ترآمت اخبار كليوباترة الى روما ، أسىء فيها تفسير أخلاق نساء الشرق واعتقدت الرومانيات أن ظرف

المرأة الشرقية وفتنتها وقدرتها على امتلاك قلب الرجل، فضائل سلبية لاترمي الا الى التمتع ولاتنشد غير اللذة

ساد فى روما هذا الاعتقاد الخاطىء عن نساء الشرق ، فأرادت الرومانيات الاقتداء بهن فخرجن على تقاليد بيئتهن وطرحن العفة جانبا ، وعبثن بالفروض الزوجية وسخرن منها ومهدن لعصر الانحطاط

ولقد كانت ابنة قيصر أغسطس نفسها مضرب المثل فى فساد الاخلاق ، حتى أن والدها عجل بنفيها من البلاد ليحجب عاره ويخنق فضيحته

وتداعت المبادىء العالية شيئا فشيئا ، وتراخت العادات ، وانهارت التقاليد ، واختفت روح الصرامة القديمة ، وشاع الاستخفاف بفضائل التقشف والاحتمال والقوة ، وعم الفساد الطبقات الرفيعة التى كان يتطلع اليها الشعب ويهتدى بهديها ويتخذ من اسلوب حياتها مثلا أعلى ..

وهكذا دبت جراثيم التحلل فى جسم المجتمع الرومانى ، وأصيب رأس المجتمع بالمرض ، وشرع الكتاب والنقاد فى لفت النظر الى الخطر المحدق بالدولة والمنحدر من قادتها وعظمائها والممثل فى قصور الأباطرة ولا سيما فى بلاط نيرون الذى كان يشبه دارا واسعة حشد فيها رهط هائل من الهستيريين !

وكانت نتيجة هذا الاستخفاف المروع بكل فضيلة . وهذا السير المطرد الحثيث نحو الانحطاط ، ان استفاق الرومانيون ذات يوم واذا بهم يسمعون صليل أسلحة البرابرة على حدود امبراطوريتهم ؛ ويشعرون ابلغ شعور وأعمقه ان ليس فى مقدورهم الدفاع عن هذه الامبراطورية وانها صائرة حتما الى الفناء والعدم !

الحب والمسيحية

عندما آذنت شمس المجد الرومانى بالمغيب نشأت المسيحية . وكانت فى أول عهدها تلمع كمصباح محجب داخل الكنائس السرية وفى أعماق السراديب . ولم يكن فى وسع الرومان أن يميزوا بين الطوائف الدينية المتحمسة التى كانت تفد عليهم من البلاد الاسيوية . كانوا يفتحون لها أبواب المدن الرومانية ، ويستقبلونها فى شبه فضول بمازجة الترفع ، ويسمحون لها بالتجمع والتكاثر فى العاصمة على شرط الا تهدد النظام الرومانى القائم

ولكن سرعة انتشار المسيحية واقبال الناس — ولاسيما الطبقات الشعبية — على اعتناقها ، بعد تزعزع الاخلاق وانهيارها فى روما ، أشعر الرومانيين أن المسيحية أصبحت خطرا على نظام الدولة

من هنا نشأت روح الاضطهاد التى عصفت بالمسيحيين ، وأودت بنفوس الكثيرين منهم حتى جاء عهد الامبراطور قسطنطين فأصبحت المسيحية دين الدولة الرسمى

وكان هذا الدين الجديد قد احتل على وجه خاص قلوب النساء ، وتمكن من أرواحهن ومشاعرهن لكثرة عدد الذين استشهدوا فى سبيله . والواقع أن المسيحية حملت الى العالم القديم فكرة واضحة عن الحب الروحانى ،

حب النفس البشرية لخالقها ، وحب الانسان لاخيه الانسان

وزاد فى قوة هذه الفكرة ، ان زعم بعض المفكرين ان اصولها موجودة فى العقائد الافلاطونية وفى مذهب الافلاطونية الجديدة الذى كان شائعا فى ذلك العصر

وهكذا انعكس الحب المسيحى على الحب البشرى الطبيعى ، وخلع عليه حلة من نوره ، وجمله وسما به . فأصبح هذا الحب احساسا شبه صوفى ، يوحد بين قلبين الى الابد ، وانفصل تمام الانفصال عن ذلك الحب الجثمانى الانانى الذى يرمى الى التمتع باللذة فقط ، والذى اعتبره آباء الكنيسة خطيئة كبرى

وكان علماء الكنيسة وجماعة الزهاد المسيحيين يقولون ان المرأة هى مبعث الشر والفساد ، فحذروا الشباب منها ومن قوة الاغراء المتمثلة فيها والمؤدية الى الخطيئة ..

وكان الحب فى نظرهم خطيئة ، ما دام لا يكلل بالزواج ، ولا يقتصر على امرأة واحدة

وافضى بهم خوفهم من جاذبية المراة ، وحبهم التقشف والزهد ، الى الحملة على فكرة الجمال نفسها وعلى مباهج الترف وأسباب النعيم التى تمتاز بها الحياة المتحضرة . وكانوا يفرون من الشهوة ، ويكبحون نزوات أبدانهم ، ويهرعون الى الصحارى تخلصا من شبح المرأة .. ولكن هذا الشبح كان يلازمهم ، ويعكر عليهم صفو تأملاتهم

مجدوا البكارة والطهر أعظم تمجيد ، ولم يسلموا بضرورة

الزواج الا كعلاج لضعف الجسد . وكانت الكنيسةتقدر الزواج وتعظمه ، وتجعل منه سرا دينيا ، وتريده اتحادا طاهرا نقيا تحف به الامانة الزوجية المتبادلة ويتوجه النسل . ولكن الكنيسة كانت تحرم الطلاق ، وتستنكر زواج الارمل والارملة متي كان لهما أبناء ، وتتقدم الى الشباب عامة بفكرة علوية عن الحياة الزوجية ، وتنادى بأن اللذة الجثمانية غيرمسموح بها فى هذه الحياة الا لانها الطريق الوحيد المؤدى الى الابوة المباركة

فالعفة والحالة هذه كانت المثل الاعلى. ولذلك كرم المسيحيون العذراء واقاموا تمثالها على هياكلهم. وظهرت اذ ذاك اعراض جديدة فى الحياة العامة، بدلت الاخلاق والعادات القديمة تحت تأثير المسيحية ابلغ واتم تبديل ...

ظهر أزواج احتفظوا بطهارة ابدانهم فى صميم الحياة الزوجية ، وأحب بعضهم بعضا حبا عاطفيا خالصا كملائكة اطهار ..

ظهر جمع من البغايا أردن الاقتداء بمريم المجدلية ، فندمن على خطاياهن وجاهدن لمحو ذنوب شبابهن بالتطلع الى الحب الالهى الاسمى ..

ظهرت جماعات كثيرة لعنت الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة ، وآثرت القبح على الجمال ، والحزن على الفرح، والالم بالغا ما بلغ من الشدة على ملذات البدن والحواس

وهكذا احست المرأة أنها مخلوق ممتاز شديد الخطورة، واسع السلطان ، يمثل الملك متى كان طاهرا ويمثل الشيطان متى كان فاسدا منحطا ..

وراق المرأة ان تكون تارة زنبقة من زنابق الفردوس ،

والاخرى زهرة من أزهار جهنم ، فمالت الى المسيحية : باحساسها ، وشعرت ان هذا الدين الجديد يقدس العاطفة التى هى منبعها ، ويحمى فى دائرة الزواج الابدى مستقبلها، ويبدل الحب ويتسامى به ويجرده من غلظته . فآمنت به وتغيرت شخصيتها على مر الزمن تحت تأثيره ، واستفاض هذا التأثير ، وغمر العالم الغربى واعطاه فكرة جديدة عن الزواج وعن الحب



الحب عند البرابرة

كان للمرأة بعض السلطان عند الشعوب البربرية التى كانت تنمو فى مجاهل جرمانيا وغاباتها ، وفى البلدان الشمالية حيث الشتاء بطىء ، والليالى طويلة مضجرة

ومما يجدر ذكره ، أن جنود الرومان عندما فتحوا بلاد الغال بقيادة قيصر دهشوا كل الدهش اذ ابصروا الغاليين يسرفون فى احترام نسائهم ، ويعتقدون أن للمرأة المنحدرة من عنصرهم قوة خارقة تكاد تكون سحرية

هذه المرأة كانت فى الواقع مساوية للرجل . كانت تصف الاملاك المشتركة بينها وبين زوجها ملكا لها . وكانت ترثها جميعا فى حالة وفاة زوجها . وكان لزوجها عليها حق الحياة والموت . ومع ذلك ففى وسعنا أن نقول استنادا الى ماكشف عنه التاريخ من أخلاق رجال بلاد الغال ، أن أولئك المحاربين ذوى الاعصاب السريعة الانفعال وذوى الخلق العنيف والزهو المتأصل والاحساس المتقلب والولع بكل جديد والغرام بالمرح والثرثرة واللفظ المنمق العذب ، كانوا بحكم هذه الطباع نفسها اقرب الى نسائهم مما يظن ، واقل استبدادا بهن ، واسلس لهن قيادا

وليس ثمة شك فى أن المرأة الغالية التى أوتيت مواهب

الفصاحة والرقة والمهارةوالشجاعة والامانة ، كانت تعرف كيف تستميل زوجها وتقنعه بسلطانه ، ثم تبسط هى سيادتها على الاكواخ الشبيهة بالخلايا ، وعلى البيوت الكبيرة فى المدن، وعلى القصورالصغيرة المزينة بالنقوش والتماثيل ..

ومن أبلغ الادلة على تفوقها حكاية « ايبونين » التى تمثلت فى حبها لزوجها عبقرية المرأة متى أحبت . كانت تعبد قرينها « جوليوس سابينوس » فحدث أن نفاه الامبراطور فسبازيان ، فاضطر الرجل الى الاختفاء والحياة فى شبه سرداب أو مغارة بعد أن أشاع اهله انه قد مات . فكانت ايبونين تذهب للاقاته فى المغارة كل ليلة، ولاتعود الى بيتها الا عند الفجر حيث تبدل شخصيتها وتمثل أمام الجميع دور الارملة البائسة

ولقد استطاعت فوق ذلك ، بفضل مهارتها وشجاعتها وحنانها ، أن تجعل من المغارة مأوى رائعا لذلك الحب العظيم الذى صقلته الآلام وسمت به التجارب وأصبح غاية الزوجين الوحيدة فى هذه الحياة

وتولد من هذا الحب توأمان ، سهرت الزوجة والزوج على العناية بهما وتربيتهما فى الظلام وفى الخفاء. ولكن القدر الغادر أبى الا ان يقف الرومان على السر ، ويكشفوا عن المأوى ، فحملوا الام والاب والولدين الى روما ، وشرع الامبراطور نفسه فى محاكمة الزوج الذى كان مواطنا رومانيا ، وقيل انه منحدر من سلالة يوليوس قيصر

وعندئذ ألقت ايبونين بولديها عند قدمى الامبراطور وصاحت :

ـ لقد حملت بهذين الطفلين فى المقابر، فخرجا الى النور ليزيدا فى عددنا . ونحن نطلب رحمتك ونستغيث بك

غير ان الامبراطور لم يرحم، فقضى على الزوج وأراد ان يعفو عن المرأة « الغالية » ولكنها رفضت الحياة وطلبت الموت مع قرينها فتم لها ما آرادت ..

ومما لا يقبل الريب ، أن حب ايبونين لزوجها تملك منها واستولى عليها واتخذ طابع هوى عنيف . فكانت هذه هى المرة الاولى التى أهملت فيها واجبها ، ونسيت انها لم تكن زوجة فحسب بل والدة ايضا ..

والحق أن ايبونين وسابينوس كانا قد تطورا ، وصقلتهما الحضارة أثناء تغلغلها شيئا فشيئا فى طبقات الشعب الغالى الرفيعة التى تلقت الثقافة الغالية الرومانية

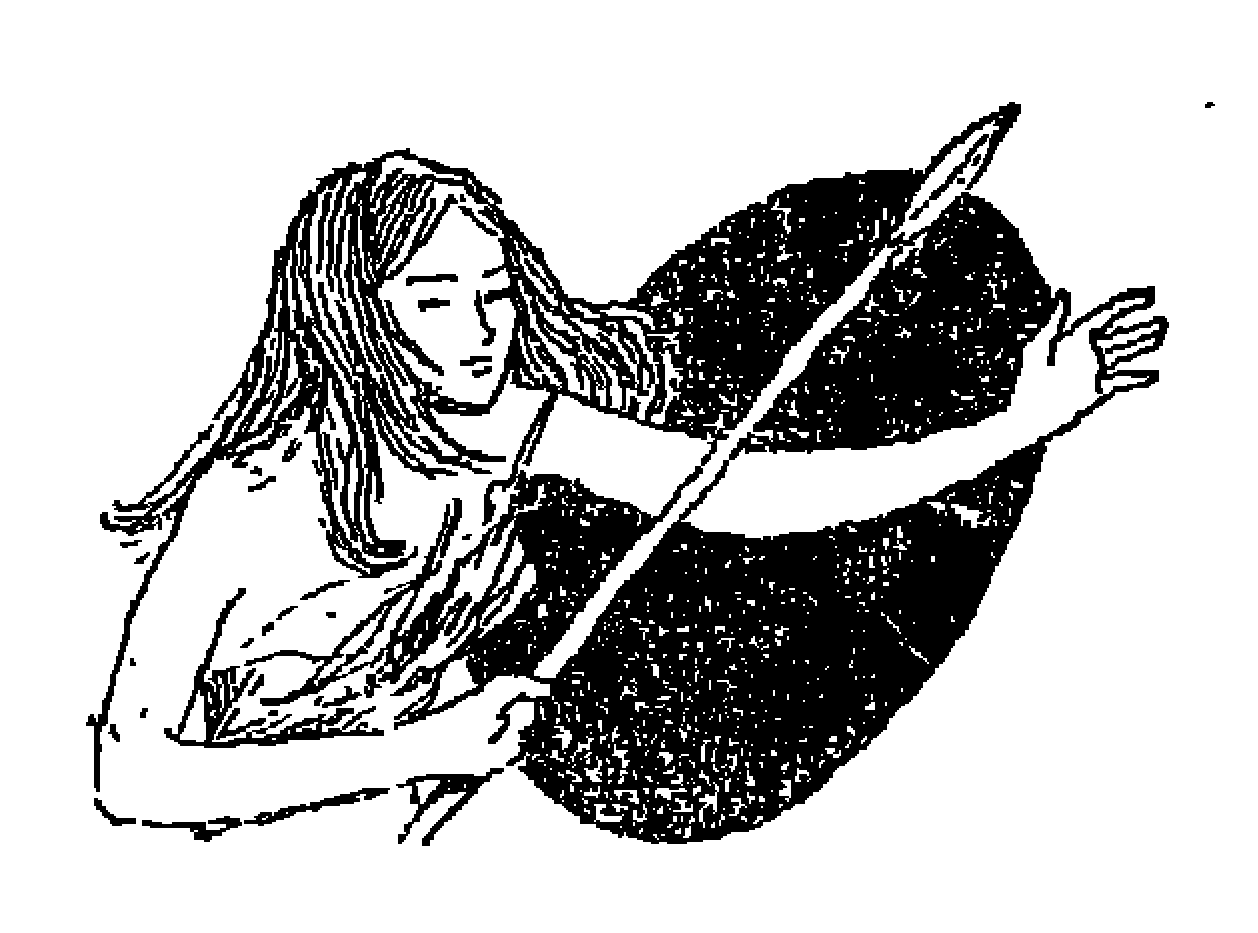
اما قبائل الجرمان فى الجانب الاخر من نهر الرين ، فكانت ماتزال بربرية بكل مافى هذه الكلمة من معنى ..

كان الجرمان اذ ذاك لا يعرفون كيف تبنى البيوت بالاحجار ، ولا كيف يجملون أكواخهم ويزينون ابدانهم .. كان الرجل منهم لا يحس الرغبة الجنسية الا فى سن متأخرة ، ويتزوج وهو بكر من فتاة بكر . فيقدم هدية لعروسه جوادا مسرجا ، ودرعا ، وسيفا ، وفأسا من فئوس الحرب

وكان اولئك الجرمان الجبابرة ، ذوو الشعر الاشقر المسترسل ، يقاتلون طمعا فى الاسلاب ويجتازون النهر ويقومون بغزوات دورية لا تنقطع ، تتبعهم عائلاتهم فى

مركبات مكتظة ثقيلة • اما الجيوش الرومانية والغالية الرومانية الساهرة على حدود الامبراطورية ، فكانت تتلقى الوقت بعد الاخر هجمات تلك القبائل وتجتهد فى صدها . ولما كانت تطارد رجالها بعد المعركة وتدفع بهم الى معسكرهم ، كانت تدهش اذ ترى نفسها امام عدو جديد .. امام نساء الجرمان ، وهن يحاربن كالرجال ويقتلن اولادهن ثم انفسهن ، متى شعرن بالهزيمة وضاقت فى وجوههن سبل النجاة !

وعليه فالحب عند البرابرة من شعوب الغال كان فطريا ، حتى تلقحت العقول بالثقافة الرومانية فخالطت العواطف هذا الحب • واما الحب عند البرابرة من الجرمان ، فقد ظل وقتا طويلا مجرد علاقة جنسية ثانوية تجد فى الزواج غرضها الاول والاخير ، ولا يسمح لها بأن تطغى فى الفرد على فضائل القوة فتضعفه وتلطف من حدة مطامعه وتحول بينه وبين القدرة على مواصلة الحرب والقتال



الحب وروح الفروسية

واخذت اوربا تتكون على مهل ، وطبعتها المسيحية بطابعها . وشرعت امم الغرب المنقسمة المجتاحة تخرج من الظلمات ، وأصبحت القرون الوسطى فى نظر العقلاء عصور جهل وتخبط وفوضى ..

وقبيل عصر النهضة الاوربية ، لاح فجر جديد وانتعشت الفنون والآداب والفلسفة ، وتكون للمرأة وللحب مثل طريف أعلى لم يكن معروفا فى العصور السابقة ..

نشأ الحب المقرون بالفروسية ، والحب المقرون بالادب والظرف والرقة واحترام الانثى الضعيفة والاشفاق عليها

واخلص الفارس المسيحى لهذا الحب ، واستمد من تمجيد العذراء مريم لونا شعريا جديدا ، طبع به احساسه الغرامى وموقفه من المرأة

وكان الفارس يمثل القوة العادلة ، والبأس المنصرف لخدمة الدين والانسانية . وكانت المرأة تمثل الضعف الذى تجب حمايته ، والطهر الذى يجب التطلع اليه . فانحنى امامها الفارس وسماها « سيدته » ولم يجد فى ذالك لاى عار لان الحب كان فى نظره مقيدا بروح الرجولة وفكرة الشرف

وأصبح الحب فى البلاد الجنوبية حافزا من حوافز البطولة ، وباعثا من بواعث الالهام الشعرى ، وقوة تدفع الى جلائل الاعمال وتولد فى الاذهان الافكار السامية الجميلة

وحفت به العواطف وغمرته، وزهرت فى قصائد غرامية رقيقة شاعت فى اللغة الفرنسية القديمة ، وتناقلتها النساء فى الاكواخ والقصور

وكانت السيدات المثقفات يعتقدن ان فضائل الحب يجب ان تكون الشجاعة والامانة والمنطق الفصيح ، وأن الرجل الابله الغبى الالكن لا يجدر بالمرأة أن تحبه ولا يمكن أن يكون العاشق المنشود .. وأن الحب الصحيح يناقض الرغبة الحسية المجردة ، ويستنكر الدعارة ، وينشد الثبات ، ويتعلق بالروح لا بالجسد وحده ؛ ويهب كل شىء حتى ولو لم يفز بأى شىء ! ..

هذا الحب تجلى فى شخص « لانسلو » عاشق الملكة جينيفر ، وفى شخص السيد « دى كوسى » الذى مات بعد أن طلب أن ينتزع قلبه من صدره ويقدم تذكارا لمحبوبته .. !

وكان هو وأشباهه يجيدون فنون القتال ، ويحذقون فنون الكلام ، ويعرفون كيف يخاطبون المرأة ، وكيف يختارونها ، وكيف يموتون غما وألما اذا أعرضت عنهم ولم تسمح لهم بحبها

اما عاشقات ذلك العصر ، فكن جديرات بعشاقهن لا من حيث الجمال فقط بل من حيث البطولة ايضا

كن رائعات الجمال ، شامخات الوجوه ، يجاهدن

جهاد المستميت قبل البـذل والاســتسلام ، وتظـل الواحدة منهن تقاوم وتمتحـن ثبات الرجل ، حتى اذا ماوثقت به وايقنت ان فضائل الحب المنشود متمكنة منه اذعنت له وخضعت لمشيئته ولم تعد تخشى فى سـبيله خطر المغامرة وخطر الموت

وحدث اذ ذاك أن تضخمت فكرة الحب المثالى عند الشباب ، وأصبحوا لا يقرون عظمة هذه العـاطفة ولا يؤمنون بها الا اذا كانت متأهبـة على الدوام للاقتران بالموت . وهكذا مجدوا شخص العاشق تريستان الذى اولع باميرة أرلندا ايزولت ، واستهان فى سبيلها بكل شىء فاجابته هى الى حبه ، واسترخصت الحيـاة مثله ، وساقهما الحب الامثل الى الموت معا ، فانبثقت بعد أيام زهرة رائعة من قبر تريستان ، وامتدت فروعها وانحنت على ضريح ايزولت ثم انغرست فيه ..

وشاع تقديس هذه الزهرة التى تربط العشاق بعد الموت ، وتصل بين أرواحهم ، وتوحد بين أنفسـهم فى العالم الآخر كما الفت بينها فى هذه الدنيا ..

ويجب أن نلاحظ أن فكرة الحب القوى المحتوم الذى يستمد سلطانه من سلطان القدر ، كانت فكرة اغريقية . وكان الاغريق يعتبرون هذا الحب كانتقام من الالهـة فينوس المتبرمة الغاضبة .. فهذه الفـكرة عادت الى الظهور فى القرن الثانى عشر ، وفى نظرة أهله الى الحب ، وفى أسطورة غرام تريستان وايزولت ، ومع ذلك فنظرة أهل القرن الثانى عشر الى هذا الضرب من الحب تختلف اختلافا كبيرا عن نظرة الاغريق ، لان هؤلاء كانوا يلعنون العذابات التى تقترن بالحب ويسخطون عليها كما فعل ديدون وفيدر ، ويتوقون الى الفـرح الـكامل الملىء ،

أما أولئك ، فكانوا يحبون آلامهم ويرحبون بها ويجدون فيها لذة كبرى . وهذا هو الاثر الملحوظ الذى أحدثته المسيحية فى تطور عاطفة الحب

فهذا الحب المطلق الذى لايعرف الانفصال

هذا الحب المقدر المحتوم الذى يهيىء رجلا لامرأة وامرأة لرجل

هذا الحب هو الحب الذى سوف ينمو شيئا فشيئا، ويزدهر ويظلل فيما بعد العالم الاوربى كله ويصبح مادة الآداب والفنون ..

ومن المهم أن نلفت نظر القارىء الى أن الحب المقرون بالفروسية والعفاف ، كان بوجه خاص مثلا أعلى فى أسبانيا الكاثوليكية التى تأثرت بالعرب ونزعتهم المشهورة فى الحرص على العرض

كان الاسبان يتساهلون فى أن يكون للسيدات الاسبانيات رهط من الفرسان المعجبين بهن ، يتطلعون اليهن ويحملون شعارهن ويقومون بجلائل الاعمال مرضاة لهن ..

ولكن لم يكن يسمح لاحد من أولئك الفرسان بالدنو من معشوقته ، او تقبيل يدها او لمس اطراف ثوبها

ولذا كان يكتفى العاشق بأن يحمل ربابته ويغنى تحت نافذتها .. وكان حبه على مر الايام يتسامى ، ويتجه نحو الخيال ونحو الروحانية المحضة خشية أن يصطدم — ان هو أراد الوصول الى شخص محبوبته — بزوجها الغيور أو شقيقها الجبار الذى يحرص على اعراض نساء الاسرة كل الحرص

والواقع ان الغيرة على العرض كانت شديدة اذ ذاك في أسبانيا . وكانت القصور محكمة الاغلاق ، والاسوار عالية ، والجدران سميكة ، وكبرياء الآباء لايقف دونها شيء ..



الحب من عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر

بدأت النهضة فى ايطاليا قبل أن تبدأ فى المناطق الاوربية الاخرى بوقت طويل

وكانت قد شاعت فى ربيع النهضة الايطالية روح شبه وثنية تغلغلت فى الحب وجعلته لا يحفل كثيرا بقوانين الشرف والاخلاق

فسيدات ذلك العصر النبيلات اللاتى عشن فى قصور الامراء ، وتهذبن وتثقفن وتعلمن اليونانية واللاتينية ، وطالعن قصص بوكاشيو ، واشتهرن بالخفة والجسارة ولاسيما فى مدينة فلورنسا ، كن لا يخشين الحب ، ولا يتهيبن الاقدام عليه ، ولا يتورعن عن التمتع الصريح بلذائذه ، ولا يخجلن من التحدث فى أى موضوع يتصل به ..

وكانت ايطاليا العنيفة فى ميولها وشهواتها تحاول أن توفق بين انحطاط الاخلاق وازدهار الفنون ..

ولقد اختفت منها اذ ذاك الارواح الطاهرة الكبيرة ، والنفوس النقية العظيمة الشبيهة بنفس الشاعر دانتى، أو القديس فرانسوا الاسيزى ..

ومع ذلك فحركة الفنون كانت رائعة فيها . . وكان العبقرى ميكل انجلو يجاهد فى هيكل سيكستين جهاد الأبطال ، وهو معلق على قطعة من خشب وقد ربط فى جبهته مصباحا وصوب نوره الى قبة الهيكل .. وجعل يبرز من تلك القبة أبدع صور الانبياء والقديسين ..

كان ذلك العبقرى شيخا دميم الوجه ، مستوحدا فى عمله ، مستوحدا فى حياته ، يعيش على هامش عصره ويخرج التماثيل الخالدة كتمثال : الليل ، والسحر ، وعذراء الشفقة ، وغيره

والغريب أن نظرة المجتمع الايطالى الى المرأة فى ذلك الوقت ، كانت نظرة حسية جثمانية فحسب .. أمانظرة ميكل انجلو فكانت شعرية تأملية روحانية ، أودعها مختلف شخصيات النساء اللاتى أبدعهن تصوره وخلدهن فنه

وكان ميكل انجلو يشعر بوحدته فى عصر اصابهجنون الحواس .. فكان اذ يرهقه النقش والنحت ، يهرع الى بيته الذى لم يدخله الحب السعيد أبدا ، ويأخذ فى أنظم القصائد فى جوف الصمت وهداة الليل ..

كان ينظم قصائد غرام ترن رنين الذهب ..

وكان يحب فيتوريا كولونا ، كما أحب الشاعر دانتى بياتريس

ولم يخطر على بال ميكل انجلو ، لحظة واحدة ،ان يدنس حبه لفيتوريا كولونا .. كان يعشقها عشقا طاهرا نبيلا ، وكان يعلم علم اليقين انها مخلصة لزوجها ، لذلك أحبها بلا أمل ولا رغبة .. هام بها لفرط هيامه

بالحب النبيل . وكان يعتقد ان مجرد وجودها على الارض هو قوة خارقة تسمح للانسان بألا ييأس من هذا العالم ومن صلاحيته للسمو والارتقاء ..

ولما توفيت فيتوريا كولونا فى شرخ شبابها ، ظلت حية فى قلب الفنـــان الحزين الذى لم يأســـف الا على شيء واحد ... وهو أنه لم يستطع أن يقبلها فى جبهتها قبلة التمجيد والطهر ! ..

ولكن ميكل انجلو كان نادرا بين رجال عصره .. وكان الحب فى ايطاليا فى ذلك العصر قائما على خديعة الازواج ، وعلى خداع العشاق ، وعلى استهتار النساء ، وعلى اقتناص اللذة . وكان الحب فى فرنسا هازئا ساخرا ، متهكما بالعواطف الكبرى ، ميالا الى النزول على أحكام الفطرة ، لاينكر الحنان ولا ينكر الالم ، ولكنه يشفعهما بالسخرية والمرح وعدم الاكتراث ..

فالحب الفرنسى كان لايبكى الا ليضحك ، ولا يرتفع عن المادة الا ليسرع بالانحدار اليها خشية أن يخـــدعه الخيال وتغرر به العاطفة . وهذه الظاهرة النفســية نجدها فى أعمال « رابليه » ممثلة أبلغ تمثيل ..

ولقد حدث فى ذلك العهد ، أن اعتقد الناس أن الحب الذى يخلق الجمال والفن والشعر ، لايمكن أن يخضـــع للقوانين الاجتماعية بل يزداد تمردا عليها كلما اشـــتد وقوى وعظم ..

هذا العارض الفكرى احس به المصلحون والاخلاقيون ووعاظ الكنائس ، فاستنكروه وبذلوا جهدهم لتحـــويل الحب من قوة عمياء لا تعرف الخير ولا الشر الى قـــوة بصيرة تتجه اخر الامر الى نفع الاسرة وخدمة الانسانية

ومع ذلك وبرغم الاصلاح الدينى الذى نادى به اوثر، وقامت به الكنيسة الانجليكانية ، لمكافحة الغرائز وكبح ميول الجسد ، لم يعدل الالمان ولا الهولنديون ولا الانجليز عن النظر الى الحب نظرة طبيعية مادية ..

والحقيقة أن هذه الشعوب ـ المعروفة بنزعتها التخيلية وميلها الى الدين والتصوف ـ كانت فى نفس الوقت شعوبا قوية الابدان ، ذات رغبات مادية جامحة ، وذات سذاجة مزهوة عجيبة ، فى محاولة تحقيق هذه الرغبات.

ولقد اشتهر أهل هولندا بالبدانة والنهم ، وكانت موائدهم حافلة على الدوام بمختلف ألوان الطعام ؛ ونساؤهم جد ممتلئات مترهلات ..

وكانت المرأة الالمانية ـ كما صورها الرسامون القدماء ـ مخلوقة بريئة المحيا ، ساذجة التقاطيع ، ذ ـئيلة الصدر، ولكن بروز بطنها ، كان يدل أبلغ الدلالة على حيوتها الكامنة وعلى خصبها وقدرتها على الامومة ..

وأما فى انجلترا ، فقد ظهر الملك هنرى الثامن وتمثلت فيه نزعات الحب المادية ، فكان لايتزوج الا ليطلق ، ولا يعشق الا ليستمتع ثم يأمر بقتل معشوقته ..

فهذه الشعوب الشمالية كانت أقرب الى الفطرة فى شئون الحب .. ولكنها كانت مع ذلك شديدة الاحساس بالدين ، ميالة الى الخيال والتصور . ولقد استطاع فنانوها ابتداع شخصية فتاة عذراء صبيانية نائحة المظهر ، ارق وأعذب من شخصية العذراء الملائكية التى ابتدعها قدماء الفنانين الايطاليين ..

وعليه فقد اتخذ الحب عند الشعوب الشمالية

صورتين مختلفتين : الرغبة المادية الطبيعية والخيال الحالم الرقيق .. ثم تطور الحب تحت تأثير التعاليم الدينية الطهرية ، فتضاءل مظهره المادى الصارخ وابتردت ناره المتأججة ..

وامتد الاصلاح الدينى الكلفينى الى فرنسا من جنيف، واتفقت تعاليمه مع نزعة الفرنسيين الى المنطق وايمانهم بسلطان العقل . ولكن ذلك الاصلاح الدينى ضيق من آفاق الحب ، وعارض الطبيعة الفرنسية المولعة بالحرية والفنون ، واتخذ من التوراة مثلا أعلى ، وقاوم فتنة الحواس ، وحصر الحب فى دائرة العائلة واقره فقط لبقاء النوع ، وجعل المرأة الجديرة بالحب هى المرأة الولود مثل ساره ، وراحيل ، ورفقة . أما العذراء مريم ، فلم يعد لها أى هيكل تمجد فيه ..

ولقد ظهرت فى فرنسا فى القرن السابع عشر شعبة تدعى « الجانسينسست » نادت بمثل تلك التعاليم، وحذرت الناس من تأثير الجمال ، ومن وطأة الحب ، ومن البحث عن اللذة فيه

ولكن الحب كان اذ ذاك مثار الحياة فى المجتمع الفرنسى الجديد فى قصر رامبوييه ، وكانت الحضارة الفرنسية قد خلعت عليه لونا جديدا هو العقل ..

كان الحب فى صالون المركيزة دى رامبوييه ، الحافل بالكتاب والشعراء وأعضاء الاكاديمية ، حبا مهذبا مصقولا دقيقا مركب العواطف غزير الافكار والتصورات أشبه بلهو عقلى رفيع تمازجه روح الفروسية ..

والواقع أن الاخلاق الفرنسية ، فى القرن السادس عشر، كانت جافة .. والاحساسات عنيفة ، والعواطف حادة ،

ولهجة الكلام نابية . وكانت الحروب الاهلية قد خلفت فى الطباع ضربا من الخشونة المنكرة ، فأرادت سيدات قصر رامبوييه تهذيب تلك الطباع ، وتمدين تلك النفوس وصقل أخلاق الطبقة العالية ، والاستعانة بالرقة والظرف وفصاحة المنطق وحسن الذوق وجمال التفكير للوصول الى ذلك الغرض ، والتلطيف من غلظة الرجل وغلظة العلاقات بين الجنسين ..

ولكن أولئك السيدات أسرفن فى الاناقة والفصاحة ، وسمين الاشياء بغير أسمائها ، وتحذلقن وترفعن ... فأصبح البعض منهن مشارا السخرية .. كن يقدسن الحب ، ولكن هذا الحب المسكين كثيرا ماتغذى على أيديهن بالكلمات المعسولة والعبارات المنمقة ، لا بالعاطفةالصادقة البسيطة . كان لهن عشاق من كبار الاشراف والادباء ، يحبونهن حبا طاهرا عقليا فلسفيا . وكان لهن عشاق من طراز آخر ، يحبونهن حبا مغامرا متباهيا مجنونا .. ويفاخرون بهن ، ويقاتلون فى سبيل شرفهن ، وينشدون المجد العسكري من أجلهن ، ويدمجون روح الفروسية فى أبسط علاقة لهم مع امرأة ..

ولقد تركزت هذه الروح ، وهذا النوع من الحب، بعد مائتى عام فى رواية الفرسان الثلاثة ، وفى شخص الفارس دارتنيان ، الذى أبدعه خيال الروائى ديماس الكبير ..

وكان كل أولئك الاشراف والفرسان يغشون قصر رامبوييه ، ويطارحون السيدات المتحذلقات غراما رفيعا تكتنفه الخطب الطويلة ، وتحف به الجمل المختارة والمنظومات الشعرية ..

وكانوا يزورون صالون ماريون دى لورم ،وصالون

الحسناء الشهيرة نينون دى لانكلو ..

ولم تكن « نينون دى لانكلو » بغيا ـ كما زعم البعض ـ بل كانت امرأة حرة ، لا تمنح ذاتها للجميع مقابل المال .. بل تتخير من الرجال أحبهم الى نفسها،وأقربهم الى طبيعتها ، حتى اذا ماضجرت منه أعرضت عنه وانصرفت الى سواه ..

وكانت امرأة مثقفة ، حاضرة البديهة ، سريعة النكتة ، لا تعرف الثبات فى الحب وتعتقد أن من الممكن أن يستحيل الحب بعد موته الى صداقة منزهة عن الغيرة مجردة من الحقد والبغض ..

وكان فى وسعها أن تجعل من عشيقها الذى أعرضت عنه صديقا لها ، وفى وسعها أن تظل صديقة مخلصة للعشيق الذى أعرض عنها .. ذلك لانها لم تعرف الحب العنيف أبدا ، ولم تستسلم بمجموع قوى نفسها واحساسها لاى رجل . وكانت متفوقة فى نقدها الصارخ للاشخاص ، وفى عباراتها المتهكمة اللاذعة ، وفى قدرتها على تصوير جوانب الضعف فى الشخصيات الكبيرة ، وحصرها وتركيزها فى جملة مقتضبة سرعان ماتتناقلها الالسن وتذهب مذهب الامثال ..

ولقد عمرت « نينون دى لانكلو » طويلا ، وعاشت حوالى مائة عام ، وتوفيت محبوبة من الجميع ..وكانت واسطة العقد بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فى فرنسا ..

ومع ذلك فقلب المرأة الفرنسية ، فى القرن السابع عشر ، لم تمثله « نينون دى لانكلو » .. بل مثلته

الكاتبة الذائعة الصيت مدام دى لافاييت فى بطلة قصتها الخالدة « البرنسيس دى كليف » ..

صورت الكاتبة فى هذه القصة ، شخصية امرأة نقية القلب ، خالصة النفس ، تحب حبا قويا عميقا .. وتذهب فى هذا الحب الى حده الاقصى ، وتشعر فى نفس الوقت بواجبها الزوجى وتريد أن تؤديه كاملا ، ولا تسمح للحب بأن يطغى على بصيرتها ، ويخضع عقلها ، ويحول بينها وبين تأديتها ذلك الواجب .. فهى مخلصة لحبها ومخلصة أيضا لزوجها وان كانت لاتحبه ..

هذه الشخصية النبيلة التى تحب على الرغم منها ، ولاتريد أن تسقط تحت تأثير هذا الحب .. بل تجاهد لتأدية واجبها مااستطاعت الى ذلك سبيلا،هى الشخصية التى تمثل نساء فرنسا الممتازات فى ذلك العصر ، والتى تنعكس فيها نزعتهن الغرامية السائدة ..

والواقع أن الحب ، على هذه الصورة المجاهدة ، كان فى عرف الصفوة من الفرنسيين اذ ذاك باعثا على صقل الاخلاق ، وعلو الهمة ، واستكمال نقص الطبائع ، والاتجاه بالفرد نحو حياة جميلة مجيدة ..

ولم يكن الشعب الفرنسى وحده ميالا فى ذلك العصر الى العواطف نزاعا الى الحب .. بل كان ملكه أيضا ـ لويس الرابع عشر ـ أولع مايكون بالغرام ، وأفتن مايكون بالغادات الحسان ..

أحب لويس الرابع عشر فتاة فى الثامنة عشرة ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، رقيقة المظهر ، حيية خجولا ، يسحر جمالها الانظار ويأخذ بمجامع الافئدة ..

أحب الملك « لويزا دى لافاليير » ثم انصرف عنهـا بعد بضع سنوات .. أما هى فقد أخلصت له الود ، وأحبته حبا صادقا . وكانت فى خلال اتصالها به ، تعتقد أنها ارتكبت خطيئة مروعة ، وان الله لن يغفر لها هذا الذنب ، وان من واجبها أن تسمو بهذا الحب جهـد الطاقة وتخلص فيه كل الاخلاص كى تشفق عليها العناية وتمنحها الصفح والمغفرة ..

ولقد حدث عندما تبرم بها الملك ، ومال عنها الى مدام « دى مونتسبان » أن احتملت عذاباتها بنفس هادئة ، وصبرت على الاعراض والذل ، واعتبرت آلامها عادلة ، ورضيت بها تكفيرا عن خطيئتها ، ثم قدمت هذه الآلام الى الله واتجهت اليه بالصلاة والتقوى عساه أن يرحمها ويغفر لها ماضيها ..

واشتد بها العذاب ، وضاق صدرها ذرعا بخيانة الملك ، فوطنت العزم على الانقطاع لخدمة الله .. وودعت العالم ودخلت دير الكرمليات حيث ماتت بعد ست وثلاثين سنة ، قضتها فى الزهد والتقشف والعزلة والتكفير ..

ومن المهم أن نلاحظ أن بطلات الحب القديمات أمثـال ايزولت وفرنشيسكا دى رمينى ، كن لا يحفلن بنتائج هذا الحب ولا يندمن عليه ولا يشعرن حياله بتبكيت الضمير . أما بطلات القرن السابع عشر ، فكن يعتبرن الحب خطيئة مع اخلاصهن له وتفانيهن فيه ..

كن فى صميم قلوبهن مسيحيات كاثوليكيات ، يطالعن أعمال القديس فرانسوا دى سال ، ويذهبن الى الكنيسة فى بعض الاحيان لسماع الوعظ الدينى ، ويجـادلن أصدقاءهن فى البحوث الاخلاقية واللاهوتية ، ويفحصن ضمائرهن اذا ما اعتزمن الاعتراف الى القسيس ، ويذرفن

الدموع فى الكنائس كلما قام كاهن نابغ بتأبين شخصية عظيمة وشرع يتحدث عن القصاص الذى يعده الله فى العالم الآخر للمذنبين المستهترين ..

هؤلاء النسوة كن يقعن فى مستهل شبابهن تحت تأثير الحب المحرم ، وكن يعرفن اللذة والالم .. ولكن تقديسهن الحياة الروحية كان يستيقظ فى نفوسهن متى بلغن سن الكهولة وذبلت زهرة جمالهن ، فكن يلجأن حينئذ الى الله مدفوعات بقوة خفية لا تقبل المقاومة ، فيلوذ البعض منهن بالصلاة والتقوى ، ويدخل البعض الاخر الدير كما فعلت اويزا دى لافاليير ..

ولقد حفل القرن السابع عشر بهذا الصنف من النساء اللاتى بالغن فىالتمتع وبالغن فىالتدين والتكفير .. ولكن الظاهرة الهامة التى يجب أن نسجلها ، والتى مهدت لاسلوب الحب العابث فى القرن الثامن عشر تتلخص فيما يأتى :

عندما عصفت الشيخوخة بالملك لويس الرابع عشر ، ارتد الملك نفسه الى عقله وثاب الى رشده ، وعاد هو الاخر الى التدين والتقوى .. فاقتدى به رجال ونساء البلاط ، وطغت على الشعب موجة من التدين «الاجبارى» وأصبحت الفضيلة مفروضة على الناس فرضا .. فتولد من ذلك ضرب من النفاق واخفاء الذنوب تحت مظاهر الفضيلة ، وستر الملذات بقناع التدين . وهكذا مهد الطريق للحب النزق العابث الطائش الذى انفجرفىالقرن الثامن عشر

الحب فى القرن الثامن عشر

عندما يذكر اسم القرن الثامن عشر ، يتصور المرء على الفور صالونا مملوءا بالتحف الفنية الشائقة ، والاثاثات الجميلة المقوسة الجوانب ، والاغطية والاستار الحريرية تتفتح فيها الازهار كما تتفتح فى الحدائق ..

كل شىء فى هذا الصالون يدعو الى الحب ويوحى بالتمتع ..

تحررت المرأة من الازياء الثقيلة التى كانت شائعة فى البلاط القديم ، وارتدت أثوابا فى شكل سلال تبرز تقاطيع بدنها ، وتظهر بياض عنقها وذراعيها ، وتزيد فى رونقها وبهائها ..

تعلمت المرأة كيف تستخدم المساحيق ، تضاعف بها جمالها وتخفى بوساطتها آثار السنين ..

وكان الرجل يرتدى أثوابا من المخمل ، ويرسل شعره خلف رأسه ، ويعقده بشريط أسود فيبدو ساحرا وعليه رشاش البودرة ..

كان الرجل فاتنا كالمرأة .. وكان كل منهما لا يعيش الا للتمتع باللذات والتمتع بأحاديث الصالونات ..

فقد الجنسان حب العواطف العظيمة .. وتبدل الزمن

واختفت « موضة » المجادلات اللاهوتية ، وحلت محلها بين الطبقات الرفيعة « موضة » المناقشة فى الموضوعات العلمية ..

وشاعت مطالعة القصائد الشعرية التافهة والقصص الصغيرة السطحية ، وأصبح الحب نزوة عارضة ..

تحللت الاخلاق وفسدت المشاعر ، وجرت العـــادة الا يحب الرجل امرأة واحدة ويخلص لها .. بل يتنقل من هذه الى تلك ، ولا غرض له سوى اللهو والتمتع ..

هذه هى الصورة الغالبة لما كان عليه القرن الثامن عشر ـ قبل ظهور الفيلسوف جان جاك روسو ـ صورة قوم طائشين عابثين يتخذون من الحب ملهاة لحواسهم وعقولهم ..

وهذه الصورة نراها واضحة المعـالم فى مسرحيات ماريفو ، وفى بعض روايات فولتير ، وفى بعض الاقوال المأثورة عن العلامة بوفون ..

وليس ثمة شك فى أن ادماج العواطف فى الحب ، كان اذ ذاك شيئا محتقرا وباعثا على السخرية .. كان دليلا على عقل قاصر ، وروح صبيانية ، ونفس ســاذجة ، لا تستحق غير الابتسام والشفقة ..

كان الشعور بأبدية الحب يعتبر نقصا فى الذكاء .. وكان الايمان بوفاء المرأة أو وفاء الرجـــل برهانا على الحماقة والبله ..

وكانت فكرة استمرار الحب أبعد ماتكون عن النفوس والعقول ..

لم تكن الغاية من العلاقات بين الجنسين الا مرضاة احساس طارىء ، وولع وقتى ، وجاذبية مصيرهاالمحتوم الى الزوال السريع . لذا كان الرجال والنساء يحبون بالعقل فقط ، ومن المعروف أن العقل وحده لا يكفى للاحتفاظ بامرأة واحدة .. !

واذن فالتنقل من حبيب الى حبيب كان شائعا بين النساء والرجال ، وسهولة الاتصال كانت شائعة أيضا كسهولة الانفصال والقطيعة .. فترتب على ذلك ان فقد الحب لذته عند طائفة كبيرة من العشاق المستمتعين العابثين ، وعافته نفوسهم ، واشمأزت منه فى مظهره العادى ، وتاقت الى تبديله والتفنن فيه واضافة بعض العناصر الجديدة عليه كى لا يظل متشابها فى صوره والوانه

أولئك العشاق الذين أفسدت اللذات عقولهم لفرط انهماكهم فيها ، والذين ألفوا الحب المادى ولم تعد تقنعهم بساطته ، أرادوا تجديده فأدخلوا عليه لذة أخرى وهى لذة التعذيب .. تعذيب الشخص الذى يحبون ، تعذيب المرأة باشعارها بذلها وفضيحتها وعارها .. تعذيب المرأة تعذيبا جثمانيا يسيل منها الدموع والدماء كما كان يفعل المركيز دى ساد . ولا ريب ان هذا هو أحط أنواع الحب ، وأبلغها دلالة على التحلل والفساد ..

ولكن هل هذه الالوان كانت كل الوان الحب فى القرن الثامن عشر ؟ ..

وهل لم يكن الحب غير ذلك الهيكل العظمى الانيق الذى لا قلب له ولا روح ؟ ..

وهل لم تكن بين نساء أوربا اخوات للبرنسيس

دى كليف التى أشرنا اليها ؟ ..

كلا .. لم يتبدل جوهر الحب ، كان هنـــاك رجال ونساء عرفوا كيف يحبون بكل قواهم ، وكيف يرضون باستمرار الحب ، وكيف يخلصون فيه ، وكيف يحتملون عذاباته ..

كانوا قلة .. ولكن هذه القلة احتفظت بالمشـــعل المقدس ، وهى التى خلدت فى قلوبنا حتى اليوم ..

ومن بطلاتها الغادة « آيسيه » التى احبت الشيفاليه دايدى حبا عاصفا مبرحا ، ورفضت الزواج منــــه كى لا تكون عقبة فى سبيل تحقيق مطامعه المشروعة ، ثم ماتت وفية له مؤمنة بخلود حبها ومؤمنة بوجود الله ..

والانسة «دى لسبيناس» التى تحالفت عليها الكوارث وجردها القدر من عناصر الجمـــال والصحة والثروة ، والتى هامت بالحب المطلق وذاقت من عذاباته ألوانا ، ولخصت قصة حياتها فى هـــــذا الخطاب الوجيز الذى ارسلته الى من تحب ، والذى يعتبر فى اللغة الفرنسيـــة أجمل وأتم خطاب غرام :

« ياصديقى العزيز .. انى فى كل لحظة من لحظات حياتى لا أستطيع الا أن أحبك وانتظرك وأتألم ! »

ولقد تحقق أيضا هذا الحب الوفى الصادق بين الشيفاليه دى بوفلير ومدام دى سابران ، وبين سان لامبرت ومدام دودتو ، وبين الدوق دى ريشيليو ومدام ميشيلان التاعسة المسكينة التى انصرف عنها حبيبها فماتت غما وحسرة !

وهناك سيدة كانت تدعى مدام « دى لابوبلنير » وكان يعتقد الناس انها امرأة لاقلب لها ولا خلق ، ومع ذلك

فقد أحبت .. وانتزع الحب من صدرها أروع الصرخات في رسالة وجهتها الى من تحب وجاء فيها :

« يا فؤادى العزيز ·· لماذا تكتب الى فى عبارة جافة وأنا لا أتنسم الحياة الا من أجلك ، ولا أعيش الا لك ، ولا أعبد سواك ؟ .. »

« أناأعلم انشواغلك العديدة تحول بينك وبين الافضاء الى بما يقلق نفسك .. أنا واثقــة من ذلك .. ولكنى وا آسفاه لم أجد فى خطابك تلك العواطف والعبارات التى تصدر عن القلب ، والتى يلذ للانسان مطالعتها بقــدر ما يلذ له أن يكتبها ..

« انى لاحس وأنا أكتب لك بعاطفة غريبة ، تضرم نار الحمى فى بدنى ، وتبعث فى نفسى القلق والاضطراب .. انى لمشرفة على الموت لانى لست قريبة منك . وهذا البعد سيكلفنى حياتى .. انى ليائسة من حياتى ، فاعلم انى لم أحبب أحدا سواك وأنى أتعس امرأة فى هذا العالم !»

هذا هو الحب الصحيح الجدير بالبرنسيس دى كليف والذى نراه ممثلا أيضا فى العاطفة المشبوبة التى شعرت بها الاميرة لويزا دى كونديه نحو رجل من عامة الاشراف يدعى مسيو دى جرفيزيه ..

لم تستطع بالطبع أن تقترن به ، فهى تحبه بلا أمل ، وتكره أن يقول عنها الناس انهـــا جميلة لانها لاتريد أن تكون جميلة الا فى نظره فقط ! ..

ولقد اضطرت ـ نزولا على حكم الدين والواجب ـ الى قطع هـــذه العلاقة البريئة بمن تحب ، ثم انتهت حياتها الى الدير حيث لاذت هى الاخرى بحب الله الذى

يسع كل عاطفة ويعزى عن كل ألم ..

هؤلاء النساء ظهرن فى ذلك العصر الفاسد ، واشتهر معظمهن فى النصف الثانى منه ، وأولعن بحياة القلب والاحساس .. متأثرات بالفيلسوف جان جاك روسو الذى دعا الى العودة الى بساطة الطبيعة ، ونادى بطيبة القلب البشرى ، ومجد العواطف ، وقدس الحب مقترنا بالفضيلة مندمجا فى عبادة الله ، باكيا منتحبا مشرئب الوجه نحو السماء ..

هذه النزعة العاطفية المنحدرة من جان جاك روسو ، اثرت فيما بعد فى نابليون نفسه ، وفى رسائله الاولى الى جوزفين .. حيث نجد أسلوبا قريب الشبه من الاسلوب الذى ابتدعه روسو فى قصته المشهورة «هيلويز الجديدة» وفى الرسائل الغرامية التى كان يتبادلها الفارس دى سان برو وحبيبته جولى بطلا هذه القصة ..

ومع ذلك فقد اختفى هذا الحب العاطفى المضطرم فى عهد امبراطورية نابليون ، وحلت محله غلظة الجنود ورغباتهم الفطرية وميلهم الى الاستمتاع المجرد قبل أن يعاجلهم الموت الواقف لهم فى ساحات الحرب بالمرصاد

وهكذا ارتد الحب الى دائرة الغريزة ، وتجرد من الشعر ، واتخذ طابعا شعبيا موسوما بالطلاقة والمرح وعدم الاكتراث . وكان الامبراطور يقر هذا الحب ، على شرط أن يعرف الجندى كيف يترك محبوبته متى دوى نفير الحرب ، وأن يقترن بها بعد عودته من ميدان القتال وأن يستولدها أبناء عديدين يصلحون لخدمة الوطن وخدمة الامبراطور ..

والواقع أن خيانة جوزفين لنابليون ، بدلت نظرته

الى الحب ، وأضعفت ايمانه بالعواطف ، وزعزعت ثقته بمبادىء جان جاك روسو . وكان بطبيعته مولعا بالقوة والعنف ، فعاد الى المبادىء الرومانية المتأصلة فى عنصره .. وبات يعتقـــد أن الحب مرض ينتاب النفس فى زمن الشباب ، ثم يصبح لدى الرجل الكامل ضعفا فى الذهن ونزعة بغيضة الى قتــل الوقت ، الذى يجب ان ينفق فى سبيل عظمة الدولة وقوتها ..

فالحب فى نظر نابليون رغبة لايفيد منهـا المجتمـع الا اذا انتهت الى الزواج والامـــومة ، فمتى تم الزواج وجب أن ينصرف الرجل الى القيام بواجباته العامة والمرأة الى حراسة البيت والسهر على النوع ..

وهكذا أراد الامبراطور أن يحصر المرأة فى دائرة البيت، وأن يجعل منها أما ولودا فحسب ، وان يجـدد عهـد الرومان .. ولكن ذلك العبقرى الذى ألم بكل شىء ، لم يفهم طبيعة المرأة الفرنسية التى رفضت الطاعة العمياء لزوجها ، وأبت أن تكون طوال حياتها أما ومرضعا فقط، وتطلعت الى شىء من الحرية فى عواطفهـــا ، وظلت فى خلال الحروب النابوليونية تطلب الحب . وعندئذ ظهر الاحساس الغرامى من جديد ، واتخـــذ طابع القــرون الوسطى ، وسرت فيه روح الفروسية لأن الحــرب كانت اذ ذاك غاية عليا وجهدا متواصلا منقطع النظير

الحب فى العهد الرومانتيكى وفى العصر الحديث

لما ساد الهدوء أوربا بعد حروب نابليون ، وأصبحت البطولة بلا عمل ،وعاد الملكيون الفرنسيون من المنفى حاملين معهم اسرافهم فى التدين واسرافهم فى الحرص على التقاليد ، استفاق الشباب الاوربى فألفى نفسه يحيا فى شبه حمى ، وفى شبه استنكار وتبرم واشمئزاز من كل شئ ..

كانت ريح البطولة المنبعثة من نابليون تطوح بالشباب، فاختفت البطولة واستولى على نفوس الشباب ضرب من الاضطراب الغامض المبهم ..

عدلوا عن مطالعة بلوتارخوس ، وانصرفوا عن تمجيد البطولة والابطال ، وجعلوا يدمنون قراءة شاتوبريان ويرون عواطفهم ممثلة فى شخص « رينيه » الذى ابتدعه هذا الكاتب ، وفى أمثال هذه العبارات التى صورهم فيها الشاعر الفريد دى موسيه :

« قضى سادة العالم على شباب اليوم بالحياة فى العطلة والضجر ، فتباعدت عنهم الامواج المزبدة التى كانوا قد هيأوا سواعدهم لمصارعتها .. انتشر النفاق فى الاخلاق، واقترنت الافكار الانجليزية الطهرية بنزعة التظاهر

بالتدين .. واختفت البشاشة ، وزال الفرح ، وأنكرت كل فضائل الارض والسماء . واضطرت النفوس الطلقة المتألمة المتحمسة الباحثة عن اللانهاية فى الافكار والعواطف ، أن تطأطىء هاماتها وتبكى . وأما الشباب فقد وجدوا لقواهم المتعطلة منصرفا جديدا هو اصطناع اليأس ! »

تلك كانت حال الشباب ..

اصطنعوا اليأس وبالغوا فيه فأصبح جزءا من طبيعتهم

فقدوا الايمان بفضيلة العمل ، وفقدوا الايمان بالعالم الآخر ، أو خيل لهم أنهم فقدوه .. فلم يعد لهم من عزاء فى غير الشعر والحب ...

وهكذا نشأ الحب الرومانتيكى ..

الحب المفتعل المقرون بالعبارات الادبية المستظهرة من الكتب .. الحب الفصيح الثائر المريض الذى يتبرم بالحاضر فيفر الى الماضى .. الحب الذى لابد له من اطار وهمى ليعيش .. لابد له من ضوء القمر وجمال البحيرات واصوات البلابل وهبوب العواصف ورنين اجراس المساء .. الحب الذى لا يجد فى نفسه كفايته ، بل يتطلع الى المظاهر الخارجية ليبحث عن عاطفة قوية غريبة عنه

ساد هذا الحب الموهوم ، وظهر عشاق خلدوه .. عشاق كانت لا تطيب لهم الحياة ، ولا يطيب لهم الحب الا فى منابت اسكوتلندا أو سواحل ايطاليا أو بين حجرات غريبة التنظيم حافلة بالرسوم القوطية والاسلحة الشرقية والنارجيلات المفوفة وطنافس بلاد فارس وشعر الشرق البعيد ..

شغفوا بهذا الحب ، وشغفوا بهذه المظاهر ، ليميزوه

عن الحب الهادىء العاقل الذى كان شائعا بين الطبقات الوسطى والذى كان مجردا من كل ذوق فنى ..

ولقد حدث من فرط اهتمام أولئك الشباب بالشعر والحب والمرأة ، أن لاحت فى جو الادب شخصية نسوية جديدة تمخضت عنها عبقرية الكاتبة جورج ساند .. شخصية تمثل عددا كبيرا من نساء ذلك العصر .. الا وهى شخصية المرأة الشاحبة اللون ، المسترخية البدن، المولعة بالخيال ، المصابة فى الغالب بعلة صدرية ، والتى تشكو على الدوام من أن زوجها لايفهمها ، وأنه غليظ الطبع مستبد الخلق معدوم الذوق ، يهتم بالمسائل العامة ويهمل امرأته غير مكترث بحاجتها الى الحب القوى الملتهب ..

ثم لاحت بجوار هذه ، شخصية اخرى ابتدعتها عبقرية الفريد دى موسيه .. شخصية تمثل معظم شباب ذلك العهد .. شخصية العاشق « رولا » الذى يمتاز بنبوغه فى الخيال والشعر ، وبعجزه عن القيام باى عمل نافع ، وباعتقاده أنه ملك سقط من السماء فى عالم غير جدير به. وهو الى ذلك شاحب اللون أيضا ، ومصدور وغيور كمطيل المغربى .. ونفسه تحدثه على الدوام بالانتحار أو بقتل عشيقته .. !

هذا الشاب الذى نحتقره اليوم ونعتبره رجلا فاشلا ، هو الذى كانت تحبه تلك المرأة ذات المزاج المريض وتتمنى الاقتران به ..

وجملة القول ، أن أولئك العشاق كانوا يطمحون الى حب مخيل لا وجود له .. كانوا ينشدون الحياة كما يحياها أبطال القصص الوهمية .. كانوا يتعمدون الخروج

على اوضاع المجتمع ، لا بدافع طبيعى صادق بل لمجرد الولع بالتمرد ومخالفة العرف ..

تجاه هذه الطبقة ، ظهرت طبقة أخرى من الرجال العمليين .. اصبح المثل الاعلى عندهم ، الحصول على الثروة لا البحث عن الحب . غير انهم افرطوا فى عبادة المصلحة وطلب المال ، وافرطوا فى اقامة صرح الزواج على المصلحة المادية وحدها واعتبار الفنانين والادباء صعاليك متشردين يجب الحذر منهم واجتناب التشبه بهم .. !

وظل الحب الرومانتيكى سائدا فى أوربا حتى عادت الامبراطورية ثانياالى فرنسا ، فتبدل شكل الحب وأصبح مزيجا من الخلاعة والعاطفة القلبية والنزوة الجثمانية .. وتمثل فى نساء مديدات القامة ، ممتلئات البدن ، منسرحات الاكتاف ، مستديرات الاعناق ، يبغضن النحافة ويكرهن الضعف ويجملن انفسهن بالاثواب الفضفاضة المصنوعة على شكل سلال ، وبيوتهن بمقاعد من طراز لويس الخامس عشر أو السادس عشر ، ويتجهن بعاداتهن وأساليبهن فى الحب الى ما كان شائعا فى القرن الثامن عشر ..

وراق الامبراطورة أوجينى هذا اللون من الحياة ، ولكن سيدات بلاطها لم يستطعن احياء العصر الغابر ..

ولم تكن بينهن امرأة كمدام دبيبنيه ، أو المارشاله لو كسمبورج .. وكن ناقصات الثقافة ، غير متوافرة لديهن عناصر الذوق الفنى الخالص . وكانت لهن فضيلة واحدة ، هى البشاشة الممزوجة بالظرف ..

وأما الحب الذى انحدر منهن ، فقد كان لهوا أنيقا تطور عند الشعب واستحال الى تفكه بدسائس الصالونات ومهازل المجتمع .. وأما بطلات هذا الحب الشهيرات : كمدام دى كاستليون ، ومدام بيلانجيه ، فقد كان ينقصهن ذلك السحر الشامخ الفطرى الذى امتازت به فيما مضى صوفى ارنو أو مدام دى بومبادور ..

وكان أن وقعت الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا، وهزم فيها الفرنسيون ، فانحطت قواهم المعنوية أول الامر واحسوا مهانة الضعف والخذلان .. ولكنهم مالبثوا أن وحدوا صفوفهم ، وأيقظوا فى جماهير الشعب عاطفة الوطنية ، واتجه مفكروهم وعلماؤهم صوب ألمانيا يبحثون عن سر انتصارها ورقيها .. فأدركوا أن الروح العملية وسيادة النظام وفضائل الطاعة هى التى مكنت الالمان منهم وعقدت لهم لواء النصر ..

عندئذ ظهر فى فرنسا مذهب الادب الطبيعي « الناتور السم » . وكان غرضه تحرير الفكر الفرنسى من لوثات الخيال ، واحكام الصلة بينه وبين الواقع ، والقضاء على النزعات الرومانتيكية المريضة ، واشعار الجماهير بحقائق الحياة ..

وسادت الروح العملية هذا الادب ، واهتم زعماؤه وفى طليعتهم اميل زولا بتصوير الظواهر المادية المحسوسة غير حافلين برسم الحياة النفسانية التى كانت تبدو لهم مركز العواطف المجردة ، أى مركز الضعف والوهم والخيال ..

غير أن هذا الادب لفرط اهتمامه بالماديات ، لم يترك لنا صورة واضحة عن المرأة الفرنسية او الاوربية فى ذلك

العهد ، وعن طريقتها فى الاحساس واسلوبها الوجدانى فى الحب ..

والحقيقة انه نزع عن المرأة تاجها ، وصورها كأنثى خاضعة لاحكام الفطرة مستسلمة لقوانين الطبيعة بعيدة كل البعد عن الشعور بالعواطف الكبيرة والفواجع النفسية . فترتب على ذلك ان انقطعت الصلة بين مذهب الادب الطبيعى وبين المرأة كانسان حساس ، ثم بينه وبين عاطفة الحب كما كانت شائعة فى ذلك الوقت

ولكن انقلابا حدث فى سنة ١٨٨٠ بظهور الكاتب الروائى بول بورجيه الذى عاد بفنه الى تقاليد الادب الفرنسى ، واحدث أعمق الاثر فى أدباء عصره ، وأرصد صفوة جهوده على دراسة قلب المرأة ..

وتبين عقب ظهور بول بورجيه ، أن النساء الاوربيات فى ذلك العهد كن أغزر ثقافة من أمهاتهن ، وأرحب فكرا، وأعمق عاطفة .. وكن يقدسن الحب ، ويطالعن اعمال الكاتب الانجليزى « راسكن » والقصصى الروسى «تولستوى» ويسافرن الى ايطاليا ، ويعجبن بجمال الفنون ، ويبتعن نسخا من صور الرسام بورن جونس .

هؤلاء النساء اقبلن آقبال الظامىء على مطالعة قصص بول بورجيه أمثال « جريمة حب » و « أكاذيب »وأخذن بها ، وروجن الدعوة لها ، واغتبطن اذ وجدن فيها الروائى الشاب يصور المرأة مخلوقا من جسد وروح تكتنفه الاسرار والالغاز ، لا مخلوقا من لحم ودم فقط خاضعا لاحكام الفطرة الوضيعة كما صوره أقطاب مذهب « الناتورالسم » ..

ولكن بورجيه أسرف فى تملق النساء ليفوز بالشهرة،

وأسرف فى تصوير الحب المحرم ليجذب اليه عامة القراء .. فتأثرت برواياته طائفة من النسوة العاطلات الموسرات فى باريس ولندن .. وطاب لهن السعى وراء ذلك الحب المحرم ، والتعلق باحساساته العنيفة ، وتضحية الواجبات الزوجية من أجله ..

ولقد حمل بعض النقاد اذ ذاك على بول بورجيه وتلامذته حملات شديدة ، واتهموا أدبهم بافساد الاخلاق وهدم نظام الاسرة .. فبدل بورجيه من طريقته ، ولم يكتف بالعدول عن تصوير أزمات الحب المحرم ورسم الفضائح البيتية والخيانات الزوجية فقط ، بل أسرف فى سلوك طريق مضاد .. واعتنق المذهب الكاثوليكى ، وجعل يبشر به ، وأصبح مفكرا اجتماعيا رجعيا محافظا

هذا اللون الصارخ من الحب المحرم الذى كان شائعا فى بعض الاوساط فى العواصم الاوربية الكبرى ، لم ينفذ الى الريف ولا سيما الريف الفرنسى — حيث كانت الفتيات تنظر الى الحب الزوجى المشروع ، وهن جالسات الى نوافذهن يطرزن او يطالعن او يحلمن بالزوج الصالح والامومة السعيدة ..

وكانت الفتاة المنتمية الى الطبقات الوسطى ، قد تهذبت وتعلمت وشعرت بحقها فى الحياة والحرية .. وادركت أن المرأة لم تخلق للالم فقط ، وانها مساوية للرجل فى الحقوق وفى الواجبات . وهذه الفتاة السائرة بخطى حثيثة نحو مبادىء وأفكار العصر الحديث ، كانت تطالع أعمال كبار الكتاب والشعراء وتقدر قيمة الحياة النفسانية ، وتقدر قيمة الحب المتبادل ، وقيمة الحياة الزوجية متى عقدت بين شخصين متفاهمين ..

ولكن موطن الضعف فى هذه الفتاة ، هو أنهـــا كانت على الرغم من يقظة عقلها الناقد ، عاجزة عن تصـــور حقائق الزواج اليومية ، وعــاجزة عن اختيـــار الزوج الصالح لها ومؤمنة أخلص الايمان بان استعدادها للحب والاخلاص والوفاء جدير وحده بجعلها امرأة سعيدة فى حياتها الزوجية ..

وكان والدها يزوجها فى الغالب زواج مصلحة بالرجل الذى يريد ، ويزفها الى كهل متهدم أفنت الملذات قــواه وتاقت نفسه الى الراحة ، فكانت المسكينة لاتكاد تهنــأ بعامها الزوجى الاول حتى تواجه الحقيقة المرة فتصبح حياتهـــا سلسلة من عذابات تدفع بهـــا آخر الامر الى التمرد والثورة ..

هذه صورة سريعة لما كانت عليه المرأة ، ونظرتهـــا الى الحب والزواج قبل الحرب العالمية الاولى ..

كانت مستنيرة مثقفة ولكنها كانت مع ذلك ضعيفة ..
كانت تهتم بالآداب والعلوم والفنون ، وتثق بزميلهـــا الرجل ، وتؤمن مثله بمستقبل العلم ، وتعتقد مثله أن استخدام الآلات يمهد للسعادة ، وارتقـــاء فن الطيران سيمحو الحدود التى تفصل بين شعب وشعب ، وان المبادىء الانسانية لا بد ستفوز ، وأن المخترعات العلمية ستوحد بين أجـــزاء العالم وتقضى على الفقر وتنشىء الفردوس فى هذه الدنيا ..

كانت تؤمن كالرجل بكل هذا ، ولا تستطيع لا هى ولا الرجل أن تتصور ما يمكن أن يأتى به الغد!..

ولقد حدث قبيل الحرب العالمية الاولى أن طغت على

أوربا موجة من الفرح بالحياة .. فأصبح الحب رقيقا لطيفا ،وتسامح الناس فى أحكامهم على المحبين،وأصبحت المرأة شبه ملكة فى بيتها وفى المجتمع ، واعتقد الكل أن عصر السعادة يوشك أن يشرق .. وعنـــدئذ تلبدت السماء فجأة ، واكفهر الجو السـياسى ، واستفاقت اوربا عام ١٩١٤ مخبولـــة مذعورة على قصف المـدافع وصليل السلاح



الحب في الشرق الأقصى

١ – في الهند

تشبه الهند شـجرة جبـارة ذات فروع لا تحصى ، وجذوع كثيرة التشعبات ، تتلاحق في ظلها الحياة والموت وفي أعماق غصونها تزهر المدنيات والفلسفات والاديان المتعددة التي تحير العقل اذا مافكر في احصائها وتبتليه بشبه دوار ..

والواقع ان سكان تلك الارض الهرمة عرفوا الحضارة قبلنا بآلاف السنين ..

كانت لهم ارفع واسمى حيـاة روحيـة محـاطة بالاسرار ..

فكيف كانوا يفكرون فى الحب ؟ وكيف كانوا ينظرون اليه ؟ وأى طابع اتخذه الحب عندهم ؟ وما ذلك النوع من السعادة الذى كانوا ينشدونه فى المرأة ؟

ان الاوربى عندما يريد ان يتمثل حيـاة الهنـود الخاصة ، يتصور على الفور نساءهم المحجبـات ، او أراملهم اللاتى يمتن على المحارق فى ملابار ، وابناءهم الذين يتزوجون فى سن الطفولة .. ثم يتصـور بعد هذا حركة الإصلاح الاخـيرة ، والجهـود التى بذلت لتحرير نساء الهند فى القرن العشرين ..

ويترامى الفكر بذلك الفرد الاوربى ، فيذكر انه التقى فى لندن او فى باريس بسيدات مهيبات الوجوه دقيقات الايدى كبيرات العيون .. عليهن غلائل صفراء أو زرقاء أو وردية اللون ، يحجب قسم منها شعرهن الحالك السواد ..

ويتذكر فوق ذلك ، ان اولئك السيدات هنديات متعلمات متحررات يعشن فى اوربا كأخواتهن الاوربيات، وتملأ نفوسهن عواطف وطنية متأججة ..

ولكن الاوربى يجهل كل شىء تقريبا عن حياة الهنود الغرامية ، ولايستطيع أن يفهم أو يتذوق أعمال فلاسفتهم وشعرائهم الخاصة بالحب ..

كانت المرأة الهندية فى العصور القديمة امرأة حرة فى التصرف بنفسها ، وحرة فى اختيار زوجها .. ولكن هذا المركز الذى كانت متمتعة به ، تغير كل التغير فى العصور التالية التى سجلها التاريخ ..

اصبحت العائلة هى التى تهيىء الزواج ، ولا ترى اية غضاضة فى تزويج الصبيان والبنات قبل دور البلوغ ..

كانوا يزوجون البنت ، وهى لم تزل فى المهد ، بصبى لا يتجاوز الثالثة أو الرابعة من عمره .. فاذا توفى الصبى مصابا بمرض من أمراض الطفولة ، حكموا على البنت بالترمل الدائم وبحياة ذليلة وضيعة ملؤها العذاب .واذا أصبحت الزوجة أرملة ، وهى فى سن الشباب ، أرغمتها التقاليد على ترك نفسها تحرق حية على نفس المحرقة التى تلتهم جثة زوجها ..

ولقد ثار المجتمع الهندى العصرى على حرق الارامل ، وحجب النساء فى البيوت ، وعقد الزيجات بين الاطفال..

ولكن هذه الظواهر الاجتماعية ، لايجب ان تجعلنا نعتقد بأن الهند القديمة كانت تزدرى المرأة وتجهل الحب ..

والحقيقة أن فلاسفتها وشعراءها ، قد ابتدعوا شخصيات خيالية يتجسم فيها المثل الاعلى للجمال والحنان ..

ومنها شخصية « سيتا » ألتى أولع بها « راما » بطل الملاحم الشعرية ، وشخصية الفادة الساحرة العذوبة « ساكونتالا » ، وشخصية الحسناء الفاتنة « برفاتى » التى استطاعت أن تكون محبوبة من الاله الجبار سيفا ..

هؤلاء النساء الغامضات المحاطات بالاسرار ، يمثلن فى نظر الهنود جمال العالم ، ويتنقلن كالازهار أو كالنجوم فى حكايات وقصص معقدة الاجزاء حافلة بأروع الأخيلة وأفتن الاستعارات والمجازات ..

ولقد رسمتهن الاساطير كنساء ذوات سحر بدنى واضح ، وأكتمال أنثوى ملحوظ ، وأجسام مرنة لينة تتثنى تحت أثداء وأرداف ثقيلة ..

ورسمتهن الاساطير أيضا كنساء ذكيات لبيبات ذوات قلوب يشيع فيها الحنان ، ونفوس تضطرم اخلاصا ووفاء لعاطفة الحب التى تشعر بها ..

ولقد ظهر فى القرن السابع شاعر هندى كبير يدعى « بارتر هارى » دخل الدير سبع مرات ، وخرج منه سبع مرات ، لفرط حبه المرأة وحبه مفاتن العالم وتردده بين نعيم الارض ونعيم السماء ..

هذا الشاعر الذى عرف الحب ، وخبر المرأة ، تحدث

عنها فى العبارات الآتية حديثا يمثل عقلية الهنود فى ذلك العصر :

« ان المرأة هى الفرح والالم .. هى القلق والراحة ، هى التى ترغمنا نظراتها على التوقف أثناء السير ، ولولا اعتراضها طريقنا وتحويلها ايانا عن غاياتنا لكان من السهل علينا أن نسرع فى عبور أوقيانوس الحياة الزاخر بالالم !

« ان مشعل الحكمة يظل متألقا مادامت عيون النساء الجميلات لاتلقى عليه وهجها !

« ومع ذلك فأى غرض أعلى تنشده الطبيعة من حاسة البصر المركبة فينا ؟ لاشك هو رؤية المرأة ؟ ..

« وأى غرض لحاسة السمع ؟ .. لاشك هو الانصات لحديثها ! ..

« وأى غرض لقدرتنا على التفكير ؟ .. لاشك هو تأمل شباب المرأة وجمالها ! » ..

هذا ماقاله الشاعر ، وهذا أسلوبه فى تمجيد المرأة .. ولكن ظمأه الدائم الى الحب لابد تعقبه خيبة الاصطدام بالواقع . وعندئذ نراه يلعن المرأة فى قصائد أخرى ، وينظر اليها فيجدها ناقصة العقل والخلق فيفر منها ويلجأ الى التنسك والتقشف والزهد ..

وهكذا الهندى يطمح الى احتضان الجمال ، ولكنه لايلبث أن يرى الجمال سرابا فيهرع الى التصوف ويتطلع الى جمال الله ! ..

هو يحنو على المرأة التى يحبها ، ويحترمها ، ويشتهيها ، ويود أن يحب من خلالها الجنس البشرى كله .. ولكن

هذه النزعة المتأصلة فى نفسه ، تشعره بأن المراة لاتكفيه ، وان هناك عالما آخر يكمن خلف جمالها المقيــد بالارض أبدا !..

وفى وسعنا أن نتبين نزعة الحب ، ومركز المراة عنــد معظم الهنود المعاصرين من خلال القصــة التى وضعهــا الشاعر الكبير طاغور ، وهى « البيت والعالم » ..

فى هذه القصة نرى شخصيــــة امرأة هندية ذكيــة وحساسة تدعى « بيمالا » ، اقترن بها البرنس « ميكيل» وكانت زوجته الوحيدة .. فلم يحجبها بل وثق بهــا واطلق لها حريتها التامة . ونرى فى الوقت نفسه هــذا الزوج الذى تخرج فى الجامعات الانجليزية ، رجلا لارذائل له ولا سلطان للتقاليد عليه ولا اثر للميول العنيفة فى نفسه ، يحب امرأته حبا زوجيا عميقا خالصا من شوائب الاثرة والانانية ..

نراه يتحدث عن المساواة بين الرجل والمراة فى الحب ، ويريد تحقيق هذه المساواة ولكن زوجته « بيمالا »تخالفه فى الرأى وترفض تلك المســـاواة ، ولاتريد أن يجلسها الرجل على عرش .. بل تطمح الى خـدمة من تحب ، وتؤثر اخضاع نفسها واحناء كبريائها امام الحب ..

فالبرنس « ميكيل » المتشبع بالمبادىء العصرية ، يعتقد ان لاحق له فى أن يمنع امرأته عن حب رجل آخر مالت اليه ميلا قويا ، وان امرأته مساوية له فى الحرية ، وأن تشبثه بها فى مثل هذه الحال يؤدى الى تضحيتهــا على مذبح أنانيته ..

ولكن الزوجة « بيمالا » تعتبر اسراف زوجها فى منحها

هذه الحرية دليلا على نقص فى حبه لها ، فتتبرم به ويروعها منه كمال أخلاقه وهدوء طبعه واتساع مدى عقله وحكمته ، فتميل الى شاب وطنى ملتهب العاطفة والاحساس يدعى « سانديب » . ولما ترى ان زوجها لم يحاول صد هذا الميل ، ولم يعتبرها متاعا له يجب أن يدافع عنه .. بل تركها مطلقة الحرية فى التصرف والاختيار ، يزداد تبرمها به فتهجره وتتبع عشيقها ممزقة النفس والقلب ، لأن زوجها لم يعرف كيف يحبها ويختصها لنفسه فقط ، ولم يفهم أنها ليست مخلوقا يطلب الحرية ، بل مجرد أنثى تنشد التفانى فى خدمة رجل واحد ..

واذن فنظرة الهند الجديدة الى المرأة والحب قد تبدلت وتطورت ، بل لقد جاوزت عند بعض الطبقات المثقفة حد المعقول . ومع ذلك فالمرأة الهندية الحديثة ـ كما يصورها لنا طاغور ـ ماتزال فى صميم أخلاقها امرأة شرقية ، تحرص على محبة زوجها لها واستمساكه بها ، ولا تطمح الا الى خدمة بيته وخدمة أولاده على الرغم من الحرية التى يريد الرجل المثقف أن يمتعها بها ..

والدليل على ذلك ان « بيمالا » ندمت كل الندم على تركها زوجها ، وحاولت التكفير عن خطيئتها ، وملأ نفسها الامل بأن روحها لابد أن تتناسخ بعد أجيال وأجيال وتعود آخر الامر الى مقرها الاول بجوار زوجها الذى لم تطلب فى الواقع رجلا سواه ! ..

٢ ـ فى الصين

سهول تتخللها المقابر ، ومعابد حمراء مذهبة ، وسطوح وسقوف ملتوية على شكل قرون ، ومدن تنبعث منها

روائح كريهة ، ومتاجر مزدانة بالمصابيح ، ورجال صفر الوجوه لهم أنوف منسحقة وعيون متغضنة ورءوس محلوقة وجدائل شعر مرسلة فوق أثواب رسمت عليها صورة تنين تحف به الازهار ، ونساء متبرجات غمرت المساحيق وجوههن ، وحجبت رءوسهن تلافيف سوداء مثبتة بالدبابيس والورود .. يرتدين أثوابا قصيرة فوق سراويل طويلة ، ويمشين على أطراف أقدامهن مهرولات متعثرات ..

هذه هى الصورة التقليدية الشائعة التى كنا نتمثلها عندما نفكر فى الصين ..

أما اليوم فقد تبدلت تلك البلاد ، وأصبح يراهاالسياح المعاصرون فى شكل جديد ..

اصبحت اليوم جمهورية مؤلفة من عناصر مختلفة الالوان ، تنزع الى المبادىء الاشتراكية ، وتتمثل فى جماهير الطلبة المتقدين حماسة ، والذين تلقوا العلم الاوربى الحديث ، واحتفظوا فى الوقت نفسه بكبريائهم الاسيوية، وعملوا على تحرير نسائهم اللاتى يتبعن أزياء باريس ويحملن الشهادات العالية وينزعن كرفاقهن الى ترويج المبادىء الاشتراكية

والواقع أن أسلوب الصينيين فى الحب كان بعيدا فيما مضى عن الحنان والعطف ..

ان العلامة الرمزية التى تشير الى « المرأة » فى الخط الصينى القديم تمثلها لنا باعتبار انها « مفتاح النقائص والرذائل »

واما العلامة التى تشير الى « الرجل » فتمثله باعتبار أنه مفتاح العواطف والميول السخية الطيبة ..

ولقد لخصت الشاعرة الصينية « بانهويبان » التى عاشت فى القرن الاول للميلاد واجبات المرأة فى كتابها « المواد السبع » الذى وردت فيه هذه العبارة : « لايجب أن تكون الزوجة غير ظل وصدى ! »

وأشارت هذه الشاعرة الى تقاليد بلادها ، فذكرت أن العرف كان يقضي بأن يقدم الصينيون لكل رجل وضعت امرأته بنتا ، بعض قطع من القرميد ، دليلا على نكبته وإشارة الى أن القرميد كالنساء يستهدف على الدوام لعبث الريح

فالفتاة الصينية كانت والحالة هذه منكودة الحظ .. كانوا يشوهون قدميها اعتقادا منهم أن تشويه أقدام الفتيات يساعدهن فيما بعد على الحصول على زوج ، وان الاقدام المشوهة هى موطن الفتنة فى النساء ومركزالاغراء، وان المرأة الشريفة العفيفة المهذبة لايجب أن تكشف عن قدميها الا أمام زوجها وسيدها

وهكذا كانت تصبح المرأة الصينية كسيحة شبهعرجاء، مشوهة الساقين ، مترهلة الفخذين ، لا تتحرك بل تثب ، ولا تمشي بل تتمايل .. وكان الرجل يجد فى هذا المنظر جمالا وسحرا

وكانت بعد أن تتزوج تصبح متاع زوجها الخاص . واما هو فكان له الحق فى عدد آخر من الزوجات ، وفى أى عدد كان من المحظيات والسرارى . وكان من واجبزوجته أن تحسن وفادتهن ، وتعاملهن كاخوات لها ..

والعجيب أن مجرد اصابة الزوجة بمرض ، أو ادمانها على الثرثرة ، أو انصراف قلب الرجل عنها .. كان يكفى لنبذها وطلاقها دون ألتجاء الى محكمة أو اضطرار الى دفع تعويض .. بل كان من حق الزوج أن يبيع امرأته اذا شاء

ولم يكن للمرأة المسكينة حيال هذا الاضطهاد ، الا ان تهرع الى أحد الهياكل حيث تعلق صورة من ورق تمثل زوجها ، عاليه سافله .. ثم تبتهل الى الآلهة الرحيمة أن تبدل قلب زوجها الذى لم يعد يخفق فى موضعه ..

كان هذا هو حظ النساء الصينيات فيما مضى . أما اليوم فالجمهورية الاشتراكية تجاهد ما استطاعت كى ترفع من شأن المرأة الصينية ، وتحرر عقلها من خرافات الماضى ، وتساويها بالرجل فى الحقوق والواجبات .. وتضمن لها المعاش فى سن الشيخوخة ، وتحميها هى وأولادها من غائلة الجهل والفقر والمرض . وما قام به المصلح الكبير « صان ـ يات ـ صن » بالامس ، تحاول الحكومة الاشتراكية ان تستكمله اليوم ، واضعة نصب عينيها أن المرأة شريكة للرجل فى كل جهد يؤدى الى خير البيت ومصلحة الدولة ، وأن الدولة كالبيت ، لايمكن أن تعيش وتنمو الا اذا ساهمت المرأة فى توطيد دعائمها باعتبارها قوة يجب أن تكون مساوية للرجل فى حق الثقافة وحق العمل وواجب الانتاج ..

٣ـ فى اليابان

كان الرجل فى اليابان القديمة ينشأ على تقاليد الفروسية ومبادىء « الساموراى » وتمجيد روح البطولة .. وكذلك كانت تنشأ المرأة ..

وكانت فضائل المرأة اليابانية الاصيلة هى : الاحتمال ، والصبر ، وانكار الذات ، والطاعة المطلقة للأبوين ثم للزوج ووالدة الزوج ..

وقد اشتهرت اليابانية ، اذ ذاك ، بقدرتها على ضبط نفسها ، وكبح جماح أعصابها ، واعتيادها بحكم التربية اخفاء عواطفها تحت ابتسامة هادئة لاتتبدل ..

كانت مخلوقا صابرا بلا تضجر ، شجاعا بلا تكلف .. وكانت قوانين الساموراى تعلمها أن المرأة وضيعة كالارض، وأن الرجل عظيم كالسماء ..

ولم تكن حياتها الزوجية غير خضوع مطرد لزوجها ، واستسلام متواصل ، واخلاص تام لمصالح العائلة ..

وكانت اذا تبرمت بها حماتها وغضبت عليها ، أقصاها الزوج عن بيته وانفصل عنها ..

لم يكن فى هذا الزواج اى أثر من الحب . ومع ذلك ، فقد كان يحدث أحيانا أن يتولد بين الزوجين ضرب من الشعور يوقظ فى قلب الرجل من نحو امرأته احساسا عميقا . ولكن الرجل كان يعتقد أن الاحساس الغرامى العميق نوع من الضعف غير جدير به ، وأن هذه العاطفة هى ميل وضيع يتفق وضعف المرأة ولا يليق برجل ..

فالرجل كان يكتفى بأن يوحى الحب الى المرأة دون أن يشعر به هو نفسه ..

كان يترفع عن الحب ولا يتحمل مسئولياته ..

فاذا اتفق مثلا أن وقعت امرأة تحت تأثير رجل وأسلمته نفسها ، قالوا انها هى الفاسدة ، وهى التى أغرته ، وهى التى يجب أن تتحمل نتائج عملها ..

ولما كان يحدث — على النقيض — أن يرغب رجل فى امرأة ، ثم يراها تعرض عنه ويشعر بعجزه عن الظفر بها ، كان هذا الرجل يعتبر أنه أهين اهانة صارخة .. فيغضب ويثور وتزايله تلك الرقة المشهور بها أدب اليابانيين ..

ولقد مثلت فى باريس رواية عصرية يابانية ، شاهد فيها الباريسيون شابا يابانيا من خريجى الجامعات يلوك سيجارته بين أسنانه حنقا وغيظا ويبصق دخانها فى وجه فتاة رفضت أن تكون زوجا له ..

وكان الباريسيون يضحكون لانهم لم يفهموا سر الخلق اليابانى ، وعظم تقدير اليابانيين لكرامة الرجولة ..

وفى ذلك يقول الكاتب الفرنسى اندريه بلسور فى كتابه « المجتمع اليابانى » :

« لما كنت فى اليابان قص على بعضهم حكاية رجل من حفدة الساموراى ، أعرضت عنه ابنة أحد القضاة ورفضت الاقتران به .. فما كان منه الا أن انتزع سيفه أمامها ، وبتر به بعض أعضاء جسمه لفرط شعوره بالاهانة التى وجهت الى رجولته من شخص ضعيف !

« ولما التقيت فيما بعد ببعض اليابانيين العائدين من أوربا وحدثتهم عن ذلك الانتحار ، قالوا لى أنهم شاهدوا هم أيضا حوادث كثيرة من هذا النوع »

ومع ذلك فهناك حوادث انتحار منشؤها الحب يسميها اليابانيون « موت القلب » أو « الموت بسبب العاطفة »

وهذه الحوادث تقع غالبا فى طبقة الغوانى المعروفات باسم « جورو » أو « جيشا » وقد تقع أحيانا فى طبقة أرقى من هذه ..

ويجب أن نلاحظ أن الغـانية اليابانية التى تبيع محاسنها للرجل لاتتخلى عن جميع الاخلاق والعادات التى تميز عنصرها ، بل تحتفظ بمظاهر الادب فى حركاتها وسكناتها واحاديثها ، ومن الممكن أن تشعر باحساسات رقيقة وعواطف عميقة ..

على أن اليابانيين اذا كانوا لا يعلقون على الحب أهمية كبرى ، فهم فى نفس الوقت لا يستنكرون المهنة الشائنة التى تتعارض والحب وتطعنه فى الصميم ..

والدليل على ذلك أن الغانية اليابانية أو « الجيشا » تهيأ طويلا للقيام بمهمتها ، وتدرب عليها منذ نعومة أظفارها .. فتتعلم مختلف آداب اللياقة وشتى ضروب الموسيقى والرقص والشعر والتصوير ، كما كانت تفعل الغانية الاغريقية ..

والواقع أن هذه المرأة اليابانية التى تبيع محاسنها للرجال هى اكثر حرية عندهم من الزوجة الشرعية واكثر سعادة .. فهى تختار عشاقها بنفسها ، ومن المحال أن يزجرها أو ينتهرها أو يسىء معاملتها واحد منهم ..

وقد يحدث في اليابان ان تتقدم فتيات لاحتراف الدعارة لانقاذ آبائهن من وطأة البؤس . وقد عرف الكاتب الشهير « لافكاديو هرن » فتاة من هؤلاء تدعى « كان » مارست تلك المهنة ـ وهى فى السابعة عشرة من عمرها وضحت بنفسها فى سبيل رفاهية أبويها ، فعشقها نجل أحد الاطباء .. ولكن والده ثار عليه ولعنه وحرمه من ميراثه واوصى بماله لشاب غريب تبناه . فما كان من العاشق الا ان استسلم لغرامه ، وانفق على معشوقته كل ما يملك .. ولما نفد ماله ولم يستطع اطلاق العنان

لحبه اتفق مع عشيقته على ان ينتحرا معا ، فأجابته الفتاة الى سؤاله وتجرعت السم مثله ، وقضت نحبها بين ذراعيه ..

هذه الحادثة قد تقع فى أى بلد من البلدان ولكنها فى اليابان تتخذ لونا خاصا وطابعا مستقلا يتمثل فى العواطف التى أحست بها الفتاة قبل انتحارها ، فى اشفاقها على ابويها ، فى خوفها من أن يعصف بهما البؤس بعد موتها، فى اقدامها على الموت وعدم ترددها .. فى اعتقادها الراسخ بأنها عاشت مع حبيبها فى عالم سبق هذا العالم ، وأنه مقدر عليها ان تعيش معه فى العالم المقبل أى فى ال «مايدو» موطن الارواح الخالدة

وهكذا ماتت « كان » شهيدة حبها ، ولكن الطبيب والد عشيقها رفض ان تدفن بجوار ولده .. فحرمها نعمة الراحة التى لايجدها العشاق — فى رأى اليابانيين — الا اذا دفنوا فى ضريح واحد جنبا الى جنب ..

أمثال هذه الحوادث فى اليابان كثير .. والعشاق اليابانيون المنكوبون فى غرامهم يؤمنون اشد الايمان بأن عذاباتهم الحاضرة هى عقاب لهم عن ذنوب منسية اقترفوها فى العالم السابق ، ولذا تراهم يحتملون آلامهم بصبر عجيب وارادة قوية ، ورغبة فى التكفير ، وأمل فى اللقاء بعد الموت ..

فالحب عندهم هو التقاء شخصين تعارفا من قبل وتفاهما فى عالم اخر .. هو عاطفة ليس فى وسع الانسان مقاومتها لان القدر هيأها فيما مضى وأبى الا ان تكون .. فكأن الحب عند اليابانيين هو الذكرى أو هو لقاء رائع بعد فراق طويل !

ومع ذلك ، فأخلاق اليابانيين تطورت اليوم تحت تأثير الحضارة الحديثة .. ومساواة المرأة بالرجـــل أصبحت شعار الطبقة المثقفة منهم ، وعاطفة الحب تبدلت فى نظر شبابهم واستحالت الى استجابة وجدانية وخلقية وعقلية لايمكن أن تتم الا بين رجل مثقف حر ، وبين امرأة عزيزة النفس وافرة الثقافة ، مكفولة الحرية ، تستطيع أن تفهم الرجل وتعاونه وتكون شريكة له فى ميـدان الزواج ، وزميلة له فى ميادين الثقافة والعمل



الحب فى العصر الحديث

هذا فيما يتعلق بالتطور الذى تم فى الشرق ، والذى مايزال آخذا مجراه الطبيعى . أما فى أوربا الغربية ، فقد تبدلت العادات والاخلاق تبدلا ظاهرا عقب الحرب العالمية الثانية ..

سادت الاخلاق الامريكية سيادة تكاد تكون تامة . ولكن الاوربيين أسرفوا فيها ، فشاعت فى طباعهم فردية عنيفة مفتونة بكل ما هو « أسبور » أى مندفعة فى الحرية ، ثائرة على التقاليد ، مولعة بالتمتع ، متهافتة على النجاح المادى .. فسهل الطلاق ، وانتشرت العلاقات غير المشروعة ، وأمعنت المرأة الاوربية فى الاقتداء بالامريكيات الثريات المستهترات اللاتى لايمثلن شخصية الامريكية الاصيلة المشهورة بشجاعتها واستقامتها ونظرتها المتفائلة الى الحياة .. فابتذلت عاطفة الحب ، وفقدت شعرها القديم ، واستحالت الى مجرد نزوة تنقضى بانقضاء دوافعها الحسية ، ولا تخلف فى النفس أية رغبة فى الثبات والوفاء . ثم تبدل طابع الادب أيضا ، فاختفت فى انجلترا صورة تلك المرأة الصبية المحتشمة الخجول التى كانت تحب الاطفال والجياد والكلاب ، وتحسن الترتيل فى الكنائس يوم الأحد ، والتى رسمها لنا القصصيون

الانجليز فى القرن التاسع عشر . كما اختفت صورة امرأة انجليزية أخرى ملتهبة العواطف ، مضطرمة الميول ، قوية الارادة لا تخشى الموت فى سبيل الحب . ثم ظهر فى انجلترا ، تحت تأثير أعمال القصصى لورانس ، أدب واقعى جديد لا يتهيب رسم العلاقة بين المرأة والرجل فى شتى انفعالاتها الحسية . ثم ظهر فى فرنسا أدباء مبدعون أدمجوا هذا اللون من الادب فى التحليل النفسى ، وذهبوا الى أقصى الحد فى تحليل عاطفة الحب .. فتطور الفرد المثقف المتحرر ، وأصبح يعرف أسرار الحب ، ولماذا يحب ، وكيف يحب ، وما هى خير الوسائل لجعل الحب عاطفة متزنة لا تطغى على الارادة ، ولا تلتهم حياة الفرد ، ولا تحول بينه وبين تأدية واجباته نحو نفسه ، ونحو المجتمع ..

وهكذا تغلغل العقل فى الحب ، ولم يعد الحب فى العصر الحديث قوة قاهرة عمياء ، بل قوة فى وسعنا أن ندرك جوهرها ، ونفهم تقلباتها واهواءها ، ونوجهها الى ضميرنا اذا كنا مثقفين ، أو نرتد بها الى حكم الفطرة اذا كنا جهلة أو متحللين . وصحيح أن العقل جرد الحب اليوم من بعض شعره .. ولكن اسرافنا فى الخيال والشعر هو الذى كان بالأمس يخدعنا ، وهو الذى كان يحجب عنا مخاطر الحب ومزالقه التى نستطيع اليوم أن نفهمها ونتقيها بعقلنا وثقافتنا . على أن ما يهدد الحب فى عصرنا العلمى الآلى ، ليس هو العقل المحلل الواعى .. بل هو انتشار الروح العملية النفعية فى العالم كله ، وتهافت الناس على المادة ، وتفاخرهم بانتهاز فرص المصلحة ، واندفاعهم فى طلب الحرية بغية التمتع .. فالرجل والمرأة كلاهما لن يعرف الحب ، اذا آثر المال على القلب ،

والمصلحة على العاطفة ، وحرية التمتع على ضبط النفس وكبح الشهوة ، والاخلاص والوفاء لانسان واحد عزيز ومختار

والواقع أن الحضارة الحديثة هى التى تغرى الفرد بالمادة ، أى تغريه بمتاعها الممثل فى مختلف الآلات السحرية التى تنتجها .. فالفرد الذى تفتنه هذه الآلات يتهالك على المال كى يشتريها وينعم بها ، فتصبح الآلات هى مطمعه .. فينسى قلبه وروحه ، ويستهزىء آخر الأمر بكل عاطفة سامية ونزيهة تتطلب جهدا وتضحية ولا سيما عاطفة الحب • غير أن الفرد الذى ينجذب الى المتاع المادى متمثلا فى الآلة ، سرعان ما ينقلب هو نفسه شيئا فشيئا الى آلة ، آلة للتمتع البدنى المحض ، آلة تشبه الآلات التى ينتفع بها ، آلة لا احساس لها ولاشعور ولا خيال

وذلك هو رد الفعل الذى لابد أن تحدثه فى الفرد حضارتنا العصرية ، ان هو استعبد لها ولم يعرف كيف يستخدمها .. فاذا شاء الفرد ألا تطغى الآلة عليه، وتجعله عبدا للمتاع المادى ، وتخمد قلبه وروحه ، وتجهز فيه على شتى العواطف العليا بما فيها عاطفة الحب ، فعليه أن يسهر على معنوياته ، ويستمسك بها ، ويذود عنها ، ويغلبها على عامل المصلحة وشهوة المال ، كى يظل الجانب الروحى فى نفسه حيا ، بحيث يمكنه أن يحب ، ويبذل فى سبيل حبه ، ويسمو بهذا الحب ، ويعيش ويسعد لا بالمتاع الآلى فقط بل بالقلب والوجدان أيضا ..

وما يسرى على الرجل يسرى على المرأة .. بل ان المرأة أحوج من الرجل الى ضبط مشتهياتها المادية

والاعتدال فيها ، اذ هي التي تبهرها الثلاجات والغسالات والمواقد والمكانس الكهربائية ، وهي التي تتهافت عليها وعلى كل مستحدث غريب من ضروب التجمل وأسباب الترف العصرية ، مما يجفف قلبها ، ويخنق عواطفها ، ويجعل المصلحة وحدها غايتها ، والحب في نظرها مثار هزؤ وسخرية ..

فالحب في هذا العصر يجب أن ينتزع من بين براثن المادة انتزاعا ، ويجب أن يكون تفوقا عليها وتحكما فيها .. فالرجل الذى يتفوق على مغريات المادة ، يحتفظ بعواطفه ، ويمكنه أن يحب ويعيش . وكذلك المرأة ، التى يجب أن تفهم فوق ما تقدم أن اسرافها في طلب المادة لن يسعدها ، واغراقها فى طلب الحرية لن ينقذها ، وافراطها فى الاقتداء بالرجل لن يجذب قلبه اليها ، وأنها كلما بالغت فى التشبه به نفرته منها ، وأضعفت حبه لها .. ونسيت أن الحب لا ينشأ فى قلب الرجل الا من اعجابه بفضائل الأنوثة الخالصة ، أى بالرقة والعذوبة والحنان والحياء والعفة ..

فهذه الفضائل هى التى تلهب مخيلة الرجل ، وهى التى تنعش نفسه وقلبه ، وهى التى تدفع به الى الزواج ، وهى التى تضرم فى صدره شعلة الحب الصادق الوفى الذى لا غنى للمرأة عنه ، والذى سيظل حيا خالدا ما بقى العالم ، وما بقيت فتنة الأنثى وجاذبية الجمال .. (١)

---

(١) بهذه الفقرة يتم تلخيص وعرض كتاب « مارسيل تينير » ونرى من واجبنا أن نتحول صوب ماضينا العربى المجيد ، وندرس عاطفة الحب عند العرب ، وكيف نشأت ، وأى طابع اتخذت ، وما يمكن أن نقتبسه منها ، كى نحرص على الصالح النبيل من تقاليدنا

الحب عند العرب

هل وجد الحب بين أبناء الصحراء ؟ .. هل وجد الحب في تلك الصحراء المحلة بين الشمس المتوهجة والارض القاحلة وقسوة الحياة بين الوهاد والنجود ورحلة الصيف والشتاء ، والعصبية الجاهلية وعزة كل قبيل بقبيله وكل انسان بسيفه ورمحه ، بين الحروب المتواصلة ومطالب العيش القاسية وجفاء الطبيعة بما يشبه القحط ؟ ..

نعم .. لقد وجد الحب فى تلك الصحراء ، عند نبع الماء وفى منعطف الكثيب وظل الواحة والنخيل ، وعلى العشب الاخضر بين حداء الرعاة وغنائهم ، وتحت النجوم البعيدة اللامعة ، وبين الرمال الصفراء المترامية كأمواج المحيط ..

هناك بين الخيام والمضارب والطنب كانت تقع العين على العين ، ويعلق القلب بالقلب ، ويلتقى كل خليل بخليلته على الشرف والعفة ولو بعد الرقيب ..

١ ــ فى الجاهلية

كان عرب الجاهلية فريقين : فريق الاشراف والسادة من رءوس القبائل ذوى الشوكة والمال والفروسية والاتباع .. هؤلاء كان الحب بينهم كما هو طبيعى أن

يكون بين قوم مترفعين لهم من متاع الحياة والقدرة على ما يكون لذوى المال والسطوة والفراغ والجاه العريض

والذين يحكمون على حياة العرب فى الجاهلية ، بأنها كانت مقسمة بين الخمر والنساء والحرب ، يصدرون هذا الحكم لما يجدون من هذه الاشياء وحدها فى شعر امرىء القيس ومعلقته وفى بقية المعلقات ، ومن وضوح هذه النواحى الثلاث وحدها وبروزها فى شعرهم ، كأنها قوام حياتهم كلها . ولكن الفريق الآخر — أى سواد العرب — كانت فى حياتهم نساء غير نساء امرىء القيس، وكان فيها حب غير حب امرىء القيس واستهتاره وتبذله

كان الشرف عندهم فوق الحب ، والذود عن العرض فوق الحياة . ونحن نرى فيما روى عن حياة الجاهلية وصدر الاسلام عجبا من الأقاصيص عن الحب والشرف بين بنات العرب وفتيانها .. حتى لقد كان بعضهم يذبل من فرط الهوى ويموت ، ثم هو لا يبوح باسم من يهوى خشية أن يصيبه أذى من أهله ، بل مخافة أن يذكر اسمه بسوء ..

كان الحب عند العرب صادقا كفجر الصحراء ، طاهرا كنقطة الندى ، يقظا محاذرا كدليل القافلة ، صامتا كتوما كغار الجبل ، راسخا قويا كالطود ، عميقا كنبع الماء فى الصخر الأشم ! ..

وكانت قيود الحياة الاجتماعية شديدة القسوة ، فكانوا اذا عرفوا أن واحدا منهم عرض لذكر فتاة فى حديثه أو شعره ، حرموا عليه زواجها ورؤيتها أبد الدهر .. ولو كانت من ذوى قرباه ، خيفة أن يشهر بالفتاة ، ويقال

انه أحبها قبل زواجها وكانت بينهما مظنة ريب ..

لهذا السبب كان الحب عذريا كتوما .. وكان محنة للنفس والروح يشقى بها المحب ويموت دون الظفر بمن يهوى . ولكن هـذا الشقاء كان عذبا شهيا الى نفوس عشاق العرب ، لأنهم كانوا يعشقون الشرف أكثر مما يعشقون أحبابهم . وكان شباب العرب يفاخر بعضهم بعضا بهذا اللون من العشق ، حتى استعلى شباب قريش يوما على بقية القبائل واشتهروا بأنهم أعشق العرب ، وحتى فاخر بنو عذرة بطهارة عشقهم فنسب الهوى العذرى الى قبيلتهم .. وكانوا كما قال عروة بن الزبير عن نفسه : « انى لأعشق الشرف كما تعشق المراة الحسناء ! » . وكانت نساؤهم تقول كما قالت ليلى الاخيلية فى شعرها المشهور :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل

ولقد قامت بين العرب حروب ومواقع بسبب هذا الشرف وقداسته .. قامت بينهم حرب الفجار المشهورة، لأن شبابا من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى غرام .. فشاهدوا امرأة جميلة من بنى عامر محجبةالوجه تحدث شابا فسألوها أن تسفر ..

بل هذا امرؤ القيس نفسه ، طرده أبوه لأنه عشق ابنة عمه عنيزة ، وكان له معها يوم ـ ذكره فى معلقته ـ غير حافل ..

٢ — فى الاسلام

بقي العرب يحبون ذلك الحب العذرى الطاهر ، فتحافظ الفتاة ويحافظ فتاها على شرفها وشرفه كحفاظهم على دمائهم ، حتى جاء الاسلام وجاء محمد عليه الصلاة والسلام فجعل العاشق العفيف من الشهداء ..

ولقد روى عنه عليه السلام انه قال : « من أحب فعشق فعف فمات فهو شهيد ! »

وكان عليه السلام يجعل المكان الاول لعواطف الخطيب والمخطوبة ، ولم يجعل للأب ولا للولى أن يزوج فتاة بغير من تريد .. بل كان يرد زواجهما عند عدم الرضا ..

وقد جاء فى الصحيحين أن خنساء بنت جذام زوجها أبوها — وهى كارهة — فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة .. فخيرها النبى صلى الله عليه وسلم

وجاءت فتاة اليه عليه السلام وقالت : « ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته » فجعل النبى عليه السلام امرها اليها . فقالت : « قد اجزت انا ماصنع أبى .. ولكنى أردت أن اعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء ! ... »

ولقد بقي الحب على عذريته وطهارته بين الاعراب ى الصحارى والمدن ، حتى جاءت الفتوح والاموال والغنائم من بلاد فارس والروم ومن مصر والعراق والشام .. فأصبحت بلاد العرب سوقا مائجة بالاسلاب والجوارى ، فلقى اشراف العرب ورءوسهم من هذه الاموال والغنائم ما جرهم الى ترف الحياة

ومفاسد التحضر والنعيم. فظهر العشق الماجن المستهتر الذى اشتهر به عمر بن أبى ربيعة ، والذى نجد أقاصيصه فى مصارع العشاق وتزيين الاسواق وبلاغة النساء ، وما دون أبو الفرج فى الأغانى ..

هذه القصص ، وهذا الشعر ، وهذه النوادر التى تدور حول اسماء فضل الشاعرة ، وعبيدة الطنبورية ، وحبابة ، وذات الخال ، وعشرات من أمثالهن ، لا تدل فى شيء على حب العرب وما عرف به من طهارة وعفة ، بل تدل على مجون وعبث الموسرين والاغنياء مع جواريهم اللاتى كن يشترين ببدرات الذهب ، ويجلبن من أسواق العبيد

والواقع أن حب العرب هو ذلك الحب الشريف الذى نجده بين قيس المجنون وليلاه ، وبين كثير وعزة ، وبين جميل وبثينة ..

ومما يذكر عن قيس أنه بعد أن منع ليلى ، وبرح به حبها حتى أصاره رجلا تالفا مشرد العقل مشوش الذهن .. كان لا ينفك عن ذكرها ، وترديد شعره فيها ، وندائها فى الليل والنهار . فلما جاءته ليلى تطرق باب خيمته لم يجب ولم يلتفت الى الطارق لأنه كان مشغولا عنه بالتفكير فى ليلى !

وكذلك نجد فى أقاصيص العرب أمثلة عليا فى وفاء المحبين واخلاصهم وثباتهم ..

ولم تكن قسوة الحياة فى الاسلام ، ولم تكن سطوة المجتمع على مثل ما كانت فى الجاهلية .. فرأى علماء الاسلام فى هذا النوع من الحب لونا من ألوان العبادة كما

قال بعضهم . فكانوا يشفقون على أبطاله ، ويقوم الاشراف بالوساطة والشفاعة حتى يزوجوهم بمن أحبوا ...

فمن هذا الحب الشريف ، ومما كان يسود المجتمع الاسلامى بعد الصدر الأول ، ظهرت الصوفية .. وهى نوع من الحب ازدهر أول الامر فى قلوب العاشقين الاطهار، ثم تطور ونما وتطلع الى الحب الاعلى أى الى حب الله !

***

وقد بقى بعد ذلك أن نختم بما كان يحسن أن نجعله مبتدأ . فنذكر ما كانت العرب تسمى به الحب والعشق وما تقصده من دلالة هذه الالفاظ . ومنه نجد أنهم كانوا يعرفون طهارة قيس وليلى ، ولا يعرفون نزوات العابثين والجوارى ..

قال ابن منظور فى لسان العرب : « الحب الوداد .. والعشق عجب المحب بمحبوبه أو افراط الحب . وسمى العاشق عاشقا لأنه يذبل من شدة الهوى ، كما تذبل العشقة اذا قطعت .. والعشقة شجرة تخضر ثم تذبل ثم تدق »

فهذا العشق الذى يذكره لسان العرب هو العشق النبيل ، هو عشق المجنون وكثير وجميل وعذاراهم الطاهرات ، وهو الذى قال فيه المجنون وصدق :

ولا خير فى الدنيا اذا أنت لم تزر
حبيبا ولم يطرق اليك حبيب

الباب الثانى

رسائل حب خالدة



تعريف

بعد أن أحاط القارىء علما بنشأة الحب وتاريخه ، منذ فجر البشرية حتى اليوم ، نقدم اليه طائفة من أروع رسائل الحب ، كتبها عباقرة ونوابغ من رجال ونساء ، أودعوها عصارة قلوبهم ، وصفوة أرواحهم ، وما الهمتهم اياه عاطفة الحب الصادق من عبارات ساحرة ، واخيلة ناضرة ، وفضائل وجهود وتضحيات ، تهذب الفطرة وتصقلها ، وترتفع بنوازع الفرد من دنيا الجسد الى عالم الروح .. فهذه الرسائل المختارة ليست مجرد رسائل غرام ، بل هى أمثلة خالدة فى نبل العاطفة ونبل السلوك ، فى وسع كل منا أن يتطلع اليها ويهتدى بها ، اذا شاء أن يحقق فى فكره وقلبه فضائل الاستقامة والصدق ، وارادة التفوق والاستعلاء

عبادة وتقديس

« اولع الرسام الايطالي العظيم « جيوتو » صديق الشاعر دانتي ، بامرأة كانت هي القوة الروحية التي استلهمها معظم اعماله الفنية الرائعة . وقد فاض حبه ذات يوم ، فكتب اليها هذه الرسالة التي هي أشبه بقصيدة من خالص الشعر »

أتمنى أن أراك يا حبيبتي .. ثم أتمنى الا اراك او أخاطبك .. ثم أتمنى لو انى لم أعرفك أبدا لأستطيع فى غد أن أنساك .. ومع ذلك فليس فى وسعى الا أن أسعى اليك ملهوف الشوق مشبوب الحنين

فدعيني اغمرك بالقبلات ، كى يستحيل وجهك الرائع تحت فيض قبلاتى الى سماء صغيرة مرصعة بالنجوم ..

سأجعل من عظام بدنى صليبا ، أصلب نفسي عليه .. لافتديك بعذابى ، وأهبك السعادة كاملة من خالص عرقى ودمى ..

انى لأحبك حبا أود معه أن أحملك فى كيانى كالمرض العضال .. أو الجنون المفترس الذى لا يعرف غير خيال واحد وفكر واحد وفكرة ثابتة واحدة ..

لقد اشفقت على آخر الامر يا امرأة وأحببتنى ، ثم نقعت غلتى بماء قراح سكبته يدك الناضرة السخية فى اعماق قلبى .. وها هو ذا الماء ، ماء حبك ورحمتك ، قد استحال بسحر ساحر الى عسل الهى . أما قلبى أنا ، قلبى

الشاكر الخاشع ، فقد استحال الى هيكل حرام ، أسبح فيه بحمدك ومجدك وجمالك يا حبيبتى ..

فيا لهذا الجمال الذى يملأ قلبى وعينى ورئتى .. الهواء معطر حولى ، والسماء صافية أمامى ، ونور الشمس لا ينصب على الا ليستغفرنى ، كى يسيل مشعشعا على محياك أنت ، ومقبلا فى عبادة وتقديس صدرك الطاهر الملىء الذى استحال الى طاقة زهر حية !.. من أنت ياحبيبتى ؟.. وما سر سحرك ؟ ولماذا اصطفيتك من دون النساء جميعا نعمة لقلبى ، ورحمة لنفسى ، وهيكلا أبديا لعبادتى ؟..

هأنذا أجمع كل مولدات خيالى لاصف حسنك الخالد هذه أنت يا حبيبتى ..

أنت الغابة الكثيفة الشامخة ، والمرج الاخضر الفسيح ، وينبوع الحياة الكبرى الذى تتدفق منه السعادة كالموج !

أنت الاملَ والفرح ، والصدق والشرف ، والحنان والرقة ، والثقة والايمان ..

انت طريق رائع مجيد لم تطأه أقدام الناس حتى ولا أقدام الآلهة !

أنت واحة خلقت للراحة وأنت محراب خلق للصلاة !

أنت الشعاع ، وأنت الشعلة .. أنت الحافز وانت القوة .. انت الوحي وانت النعمة .. أنت الدم ، وانت العصب .. وانت النفخة التى انطلق من نسيمها جوهر المادة وسر الروح !.

هذه أنت يا حبيبتى ..

حاولت أن أصفك فأعياني البيان ، وحاولت أن أمجدك فخانني العقل واللسان ..

فكيف ارضيك وارضى نفسي ، وكيف أشكرك واشكر حظي ، وماذا يجب أن أنشد أيضا وأقول لأسمع الناس جميعا جلجلة فرحي ؟ ..

لن أقول اكثر من شيء واحد : عبارة شاملة واحدة ، فيها صفوة عبادتي ، وغمرة نشوتي وشكر حياتي :

ما دام الحب قد اصطفاك من دون النساء طرا .. ومادام قد اتخذ مهبطا له قدس روحك ولون عينيك ، فذلك لأن الحب قد اختارك وحدك يا حبيبتي ليدل بجمالك الباهر على حقيقة وجود الله !..

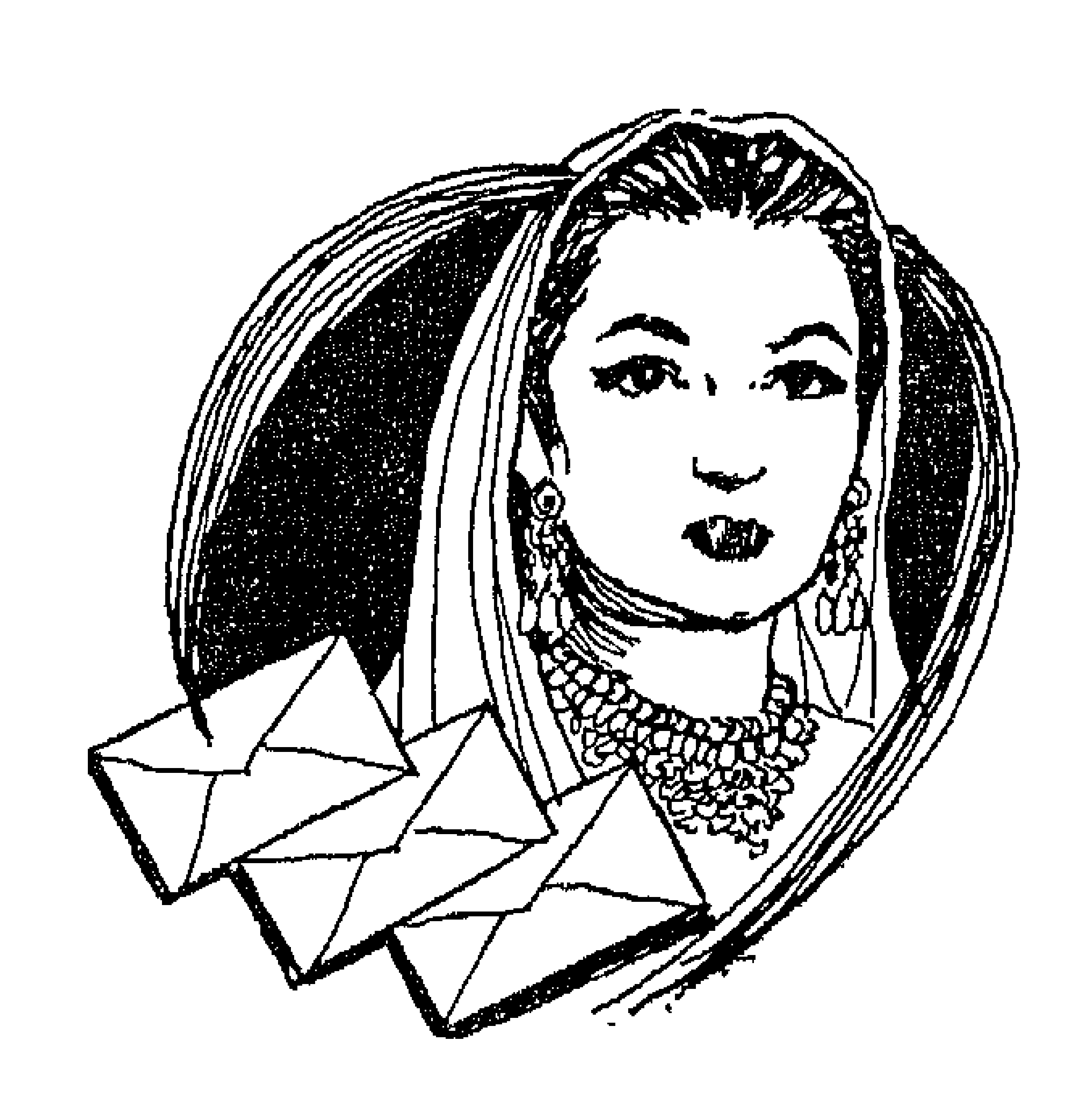


الحب وسلطان القدر

« الشاعر المسلم محمد اقبال من أكبر شعراء الهند المسلمين ، وهو فى هذه الرسالة التى بعث بها الى خطيبته التى كانت قد أعرضت عنه ثم رضيت به زوجا لها ، يرتفع الى قمة عاطفة الحب ، ويدمجها فى فكرة القدر توكيدا لصدقها وثباتها »

أكتب اليك هذا الخطاب لأقول لك أن القدر هو الذى جمع بيننا .. أجل هو القدر الذى أخضعنى وأخضعك ...ولقد كنت أنا هناك .. كنت حاضرا .. كنت حاضرا فى كل مرحلة من مراحل حياتك .. كنت أتبعك فى كل خطوة . كنت أسير معك .. كنت فكرك وظلك ، وفرحك وحزنك ، وابتسامك ودمعك ، ونهارك وليلك ، وتخبط قلبك الحائر وأمل بصرك المضىء .. فعبثا تحاولين اقصائى عنك . أفى وسعك أن تفصلى الجسد عن الروح ، والخمر عن الماء ، والحرارة عن الشمس ، والعصارة عن الربيع ؟!.. هو القدر الذى أخضعنى وأخضعك . فاحنى رأسك للقدر ولى .. أنت تشعرين بسطوة القدر ولذلك تحومين حولى .. أنت تعرفين أن القدر نار وأن النار أقوى منك ومنى !.. فاتجهى صوب هذه النار المقدسة مختارة يا فراشتى ، ودعى النار تحرقك وتحرقنى ! .. انها لنار إلهية تحرق لتحيى ، وانها لنار سحرية لا أكاد أحس وقدها فى دمى ، حتى يلتهب كيانى كله فأرى جمالك الرائع كما لم تره أبدا عينى ! ..

وها هو ذا جمالك يسطع ويتألق أمامى : جبينك الوضاح يا حبيبتى يشبه نجمة عجيبة لا تفتأ تتلألأ ليل نهار .. عيناك الكبيرتان اللامعتان تشبهان كوبين ذهبيين من أكواب عرس ملكى نادر . الزغب الناعم الرقيق غير المنظور ، النابت على صفحة خدك ، يشبه حرير بنفسجة راقدة على فراش من الورد والياسمين .. جسمك بستان أزهار تفتحت براعمها فى صدرك .. فطوقينى بذراعيك البضتين . وامسحى دموعى بأناملك المخضبة بالحناء .. أنت لى ، والقدر اقوى منى ومنك . وأنا ابكى من فرط جنونى وفرحى ، فرح الانسان التائه الشريد الذى حالفه القدر برغم بؤسه ، وابتسمت له السماء برغم شقائه ، فزفت اليه من ملكوتها الخالد حورية من حور الجنان !



نحو الكمال

« كان الموسيقى الالمانى العبقرى روبير شومان قد احب الفتـــاة الحسناء كلارا . وكان قد عزعليه ان يلمس فى اخلاقها جوانب نقص بارزة . فاراد ان ينبهها اليهـــا ابقاء على حبه لها . فكتب هذه الرسالة البديعة ، وبعث بها الى الفتاة »

يقولون أن الحب أعمى ، ولكن حبى أنا بصير ياحبيبتى وا أسفاه !.. والواقع الذى لا شـك فيه أن الانســان الذى اتسعت آفاق ثقافته وخبر الحياة ، وذاق حلوها ومرها ، لا يستطيع أن يندفع فى تيــار الحب معصــوب العينين .. ذاهلا تائها مشدوها ، جاهلا شخصية المرأة التى يحب !.. ان ثقافته تؤثر فيه من حيث لا يدرى ، وتسوقه بالرغم منه الى ملاحظة حبيبته ، وانعام النظر فيها ، ودراسة اخلاقها وطباعها ، والنفاذ الى أعمق ولأبعد الاغوار التى ترقد فى أطوائها حقيقة شخصيتها ..

ولقد كانت مأساتى فى علاقتى بك أنى لم أكن أعمى ، وانى عرفتك حق المعرفة ، واكتنهت سر طبيعتك ومزقت الاقنعة عن جوهر نفسك .. ورأيتك أمامى مجردة من كل زخرف ، عارية من كل طلاء ..

فهذه الحقيقة التى استكشفتها فى خلقك بعد عنــاء طويل ، هى التى تقلقنى اليوم وتعذبنى ، وهى التى توشك

أن تخمد نار حبى ، وتجعل من شعلته المتوهجة كومة من رماد !..

والحق أنه قد أصبح من المحال على أن أحبك على علاتك ، وأرضى بالنزول على حكم طبيعتك ، وأسلس قياد فكري وروحي لغرائزك التى اصبحت أنفر منها ، ولخلالك الفاسدة التى لم أعد أملك أية قوة على احتمالها

انى معك الان فى مفترق الطرق .. فحبى المتنبه المتيقظ يريد ان يبدل طبعك ، ويغير نفسك ، ويصوغ منك امرأة جديدة . فاذا طاوعتنى ، وأذعنت لى ، وصدعت بأمرى ، ارتد حبك الاول الى فؤادى ، وضاعفت طاعتك اضطرامه وقوته . اما اذا أبيت الاصغاء الى ، وأبيت الاعتراف بنقائصك ، وتشبثت بتلك الخلال التى أبغضها والتى شوهت خيالك البديع فى ذهنى وفى قلبى ، فمن المؤكد أن علاقتنا لابد أن تفتر ، ولابد أن تذبل ، ولابد أن تحتضر فى النهاية وتموت ..

والآن ارى لزاما على أن أبصرك بحقيقة نفسك ، وأن أميط لك اللثام عن جوهر روحك ، وان أصب ضوءا ساطعا على تلك الخلال التى لاحظتها فيك ، والتى يجب أن تطهرى نفسك منها اذا شئت لحبنا الحياة والنماء والازدهار .. وأول تلك الخلال الفاسده التى ينبغى أن أصارحك بها هى الكبرياء .. فأنت فتاة متكبرة ، متكبرة فى حماقة ، متكبرة فى عناد ، متكبرة فى جنون . وكبرياؤك هذه تملأ قلبك بالقسوة على نفسك ، وعلى الآخرين .. فاحتقار الناس هو شعارك ، والاستبدادبالضعيف ــ رجلا كان أو امرأة ــ هو فى نظرك التسلية النادرة والمتعة العميقة الكبرى . وليس شك فى أن هذه الكبرياء الطائشة

تولد فى فؤادك نشوة أمتع من نشوة الحب • حتى لقدخيل الى فى بعض الاحيان ، انك تؤثرين لذة الكبرياء على لذة الحب ، وتفضلين ان يعجب بك الناس فى المجتمعات على ان يعجب بك الرجل الذى وهبك حبه وقلبه وحياته .. على أن هذه الكبرياء بدل ان ترفع من شأنك فى عيون الناس تثير سخريتهم منك ، واستخفافهم بك ، وكراهيتهم لك .. فأنت فى الواقع فريسة للمجتمع لا سيدة له .. ولكن شخصيتك لفرط كبريائها ، لاتستطيع أن تفهم أو تسمع أو ترى •• فيجب أن تطهرى نفسك من لوثة الكبرياء أولا ، ثم من لوثة البخل ثانيا ... أجـــل أنت بخيلة .. بخيلة فى الماديات كما انت بخيلة فى المعنويات •• بخيلة فى نفقاتك كما أنت بخيلة فى عواطفك .. يحرص ذهنك المادى على النقود كما يضن قلبك الجاف بالعواطف .. فلا سخاء ليدك ، ولا سماحة لنفسك ، ولا رحابة لفؤادك ، ولا آفاق حرة واسعة مترامية يمكن أن تسبح فيها روحك .. فجوك الخانق هذا يخنق فكرى ، ويخمد انفعالاتى ، ويحفر هوة سحيقة بين قلبك وقلبى ! ••

وانى لاتساءل كيف يمكن لرجل مثلى أن يستوحى مادة جمـــال وفن من أرض صلبـــة ، وصــــحراء مقفـرة ، وينبوع جاف ؟ .. انى لانشد المـاء والرى والواحـــة الزاهرة الخضراء فلا أجد غير التربة القاحلة والميـــاه الآسنة ، والصخور الصماء ! •• فانبذى البخل ياحبيبتى تنفتح أمامك أبواب الحياة ، وتشرق عليك شمس الدنيا ويفيض منك ينبوع العواطف ثم يرتد اليك صاخبا جارفا مزبدا ! .. ومتى كافحت فى نفسك رذيلة الكبرياء ورذيلة البخل ، أمكنك ان تكافحى رذيلتك الثالثة وهى الحســـد

ولا ريب فى أنك أفظع امرأة حســـود عرفتهـــا ! ..

لا تغضبى منى ولا تتبرمى بحديثى ، فالمحب الصادق هو الذى يؤنب أما المحب المنافق فهو الـذى يداهن ويتملق !
نعم انت امرأة حسود ! .. الحسد فى طبعك ، والجشع فى قلبك ، والطمع في دمك ! .. كل امرأة جميلة يفترسها لسانك .. كل امرأة غنية تأكلها نظراتك .. كل امـرأة سعيدة تفترسها غيرتك ..

فما كل هذا يا حبيبتى ، وهل يجدر بامرأة مثلك متعلمة وذكية أن تنحدر الى مثل هذه الرذائل التى تشوه جنسها ، وتحط من قدرها ، وتجعلها مضغة فى الافواه

انى لأخجل لك ، وأشـعر من فرط حبى أن المجتمع يؤاخذنى على رذائلك ، ويعدنى مسئولا عنها ، ويطالبنى بأن اقاوم وأكافح لاجعـل منك امرأة جديره بنفسـك وجديرة بى ! .. ولا ريب فى انى اقاسى مر العذاب عندما أراك بعيدة عن مثلى الاعلى .. هذا المثل الذى من أجله أحببتك ، والذى ما زلت أومن أن فى وسعك تحقيقه بشىء يسير من اليقظة والارادة وحسن النية ..

والواقع أنك امرأة جميلة جمالا يفتن الالباب . ولقد عشقتك لجمالك هذا ، ولكن كيف يمكن أن أعيش معك وأقضى الحيـاة بطولها فى صحبتك ، وأنا ارى شـيطان كبريائك يمسخ هذا الجمال ، وشيطان بخلك يطعن هذا الحسن ، وشيطان جسدك يجهز على ما فيك من فنون الملاحة والسحر ؟ .. ان ذلك الشيطان المثلث اللعنة لابد أن يسمم فى النهاية ينبوع روحى ، ويخنق ضوء حلمى ، ويقوض صرح غرامنا ، ويحيله فى يوم من الايام الى أطلال

فأنقذى نفسـك وأنقـذينى .. طهرى قلبك من تلك الرذائل وارحمينى ! .. دعينى أفخر بك ، وأعتز بحبك ،

وازهو على الناس جميعا بصداقتك وقربك ! .. ثم اعلمى .. اعلمى أن الحب لا ينمو الا فى ظل الكمال أو فى ظل السعى المطرد نحو الكمال ! .. فالذى ينشد الكمال فى الاخلاق يستطيع أن يجد الثبات فى الحب ! .. فانشدى هذا الكمال فى أخلاقك ينتعش حبك وحبى ، واخلاصك واخلاصى ، ويظل منتعشا كلما ازددنا كمالا ، وازددنا سموا، واقتربنا من تحقيق وابداع مثلنا الاعلى ! ..

ففكرى الآن طويلا وتريثى ! فكرى فى الجهاد الشاق الذى ينتظرك ! .. فكرى فى الواجب المقدس المفروض عليك نحو نفسك . ثم فكرى فى أيضا .. واذا كنت حقا تحبيننى فلن يحول أى جهاد – بالغا ما بلغ من قوة – بينك وبين التسلط على نفسك ، والسيطرة على غرائزك، والاتجاه بفكرك وقلبك نحو ذلك المثل الاعلى من الكمال الخلقى المنشود ! ..

وانى لانتظر ردك ، فاذا لمست فيه رغبة صادقة فى التحول ، عدت اليك سعيدا بحبك فخورا بأن أقبل موطىء قدميك . أما اذا شعرت بأنك متشبثة بأخلاقك ، مستمسكة بأهوائك وميولك ، فاعلمى انى قد حزمت أمرى واستجمعت قوتى وعزمت أن أرحل كى لا أعود ! ..

***

ولم ترد الفتاة على هذا الخطاب ، بل ذهبت من فورها الى حبيبها ، وقطعت على نفسها عهدا مقدسا بتبديل أخلاقها .. فاقترن بها الموسيقى ، وظلت هى تكافح وتجاهد حتى استأصلت من نفسها رذائلها الثلاث ، وحققت فى شخصها حلم قرينها فسعد بها العبقرى ووجد فيها اخلص واوفى الزوجات

الحب وجنون الغيرة

كان القصصي الفرنسى الكبير جوستاف فلوبير يحب الاديبة لويزكوليه .. وكان مشهورا بغيرته ، فلما عرض عليها الزواج، كتبت اليه هذه الرسالة تشرح فيها اسباب ترددها واحجامها

لماذا تغار على بمثل هذا العنف ؟ ..

أمجنون أنت ايهاالروائى .. ؟ أتظن أن فى وسعك ان تحرمنى من التمتع برؤية الناس،والاتصال بهم ، والتحدث اليهم فى المجتمعات والصالونات ؟ .. كيف يمكنك أن توفق بين افكارك السامية ومبادئك الحرة ، وبين هذه الغيرة الطائشة الحمقاء التى تلاحقنى بها ، وتحاول أن توقعها على كحكم الاعدام .. ؟!

أنا لا افهم الحب على هذه الصورة ، ولا استطيع أن اتصور السعادة فى صحبة رجل الا اذا كان صدرى عامرا بالكرامة ، ونفسى زاخرة قبل كل شيء بنعمة الحرية ..

فالحرية عندى فوق الحب .. والكبرياء فوق السعادة ، واحترام النفس وتقدير الشخصية فوق كل متعة وكل نعيم ! ..

وانى لأسألك أية قيمة للحب بدون ثقة ، وأية قيمة للقبلة بدون ايمان ، واية قيمة للهبة الروحية والجثمانية الكاملة ان لم تقترن براحة فى النفس ، وسلامة فى النية ،

وبراءة فى الفكر والقلب والضمير ؟! ..

على أن الثقة المتبادلة هي التى تولد هذه الراحة .. ولاثقة بدون خبرة ، ولاخبرة بدون معرفة . ولقد عرفتنى وخبرتنى ، ونفذت بعقلك الثاقب الى أعماق نفسى .. فكيف تريد اليوم أن تستعبدنى ، وكيف يطاوعك ضميرك على ان تجعل منى ، انا المرأة التى تزعم أنك تحبها ، مخلوقا وضيعا حقيرا لا شخصية له ولا كرامة ولا احساس ؟! ..

انك بغيرتك المجنونة تنزل عن عرشك ، وتحط من قدرك ، وتنقص من قوتك ، وتجرد نفسك من كبرياء الرجولة التى من أجلها أحببتك ! ..

والحق أنك بهذه الغيرة تعلمنى الخبث ، وتدفعنى الى الكذب ، وتسوقنى الى الدهاء ، وتزين لى أن أخدعك انتقاما منك وجزاء لك على عدم الثقة بى

واخوف ما أخافه أن تسرف فى غيرتك اسرافا صبيانيا فاحتقرك ، أو أن تمعن فيها امعانا قاسيا وحشيا فاكرهك وابغضك .. !

فهل يرضيك ان تنتهى علاقتنا هذه النهاية ؟ .. هل يرضيك أن تذلنى وتمتهننى ، أنا التى كنت أصبو الى الحرية على يدك ، والى التفوق فى ظلك ، والى السمو الروحانى والفكرى استمده من نبوغك وعبقريتك ؟! لا .. لا تقتلنى يا حبيبى ! .. لا تجردنى من ثوب كرامتى .. لا تنتزعنى من مقدس كبريائى . لا تنتهك بغيرتك الطائشة حرمة نفسى .. انك ان قتلتنى قتلت نفسك ، وان لوثتنى لوثت نفسك ، وان فقدتنى فقدت عقلك ، واطفأت الشعلة

المباركة التى تضرم فى ذهنك نار العبقرية وامل الخلود !

فثب الى رشدك واهدأ .. اكبح جماح غيرتك وفكر . كن ما شئت ولكن لا تتهور .. اقتل جسمى ولكن لاتتهم شرفى ، فانه لأحب الى ان أموت مرفوعة الرأس عزيزة النفس مكفولة الكرامة من ان اعيش يرمقنى الناس بالنظر الشزر ، ويجللنى من أحب بشبهة الخزى والعار .. !

ففكر طويلا وتأمل.. اما أن تخنق غيرتك واماأن تتركنى .. اما ان تثق بى ، واما ان تنصرف عنى .. أما ان تحترمنى واما ان تفقدنى .. !

وينبغى أن تفهم يا حبيبى .. يا أعز الناس عندى ، ان المرأة لاتحب الرجل بقدر غيرته عليها ، بل تحبه بقدر اخلاصه لها ، واحترامه اياها ، وتنزيهه قلبها ونفسها عن جميع الشبهات ..

هكذا اريد أن تحبنى .. فان طاوعتنى فانا لك . وان اودعت الثقة فى نفسك ونفسى ، فانا متأهبة للتزوج بك منذ الغد .. والا فليس فى مقدورى الا ان اقول لك والخيبة تملأ نفسى والحسرة تمزق ضلوعى ، كلمة واحدة هى :

الوداع ، الوداع الى الابد يا حبيبى

***

وبرغم صدق هذه الرسالة ، فان فلوبير لم يستطع التغلب على طبعه ، فظلّ وحشى الخلق عنيف الغيرة .. فازدادت لويز كوليه تصلبا وتشددا ، وأبت اخر الامر ان تقترن به ...

صراع بين الحب والفن

« ظهرت فى ايطاليا فى مطلع هذا القرن مغنية عظيمة تدعى « ادلينا باتى » . وقد كانت فى شبابها مثلا رائعا للجمال والفن .. فأحبها شاب من النبلاء الايطاليين ، اراد ان يستأثر بها ويفرض عليها التضحية بفنها ، والخضوع المطلق لسلطان الحب ، فكتبت اليه هذه الرسالة التى تمثل الصراع الذى كان قد نشب فى نفسها بين الحب والفن

انت أحمق يا حبيبى ، بل أنت فى الواقع مجنـون ! .. كيف يمكن ان تخطر على بالك هذه الفكرة ، وكيف يمكن أن يستبد بك هذا الخيال ؟ .. لقد وعدتنى بأن تكون رجلا ، ولكن سرعان ما انقلبت الى طفل لا عقل له ولا ادراك ..

انك عندما أحببتنى كنت تعلم علم اليقين أية امرأة انا ! ... كنت تعلم انى امرأة لاسلطان لى على نفسى ، ولاحكم لى على حظى ، ولاحيلة لى فى التخلص من مهنتى .. كنت تعلم انى ملك لفنى وملك للجماهير . ومع ذلك فقد أحببتنى ! .. أحببتنى لهذا السبب نفسه ، أحببتنى لأنى مغنية موهوبة ، اكسبنى اعجاب الناس مجدا عظيما .. فكيف تنكر اليوم ما قدست بالامس ؟ .. وكيف تجحد اليوم ماعبدت بالامس .. ؟ أجل .. أنت تغار اليوم من صوتى ، وتغار من شهرتى ، وتغار من مجدى ، وتغار من تلك الجماهير الصاخبة التى تستقبلنى فى المسرح كملكة ، وتظل الدقائق الطويلة تهتف وتهلل مرحبة بى !..

انت تريد أن تحرمنى من فنى ، وتحرمنى من مجدى ، وتحرمنى من جمهورى . وتجعل منى ، أنا الفنانة المرموقة بعين الاعجاب والحسد ، امرأة تافهة ، تنقطع لحبك ، وتعيش لك وحدك ، وتذبل بين جدران بيتك . . ثم تموت آخر الامر قانعة وسعيدة بين ذراعيك ! . .

هذا حلمك . . أليس كذلك ؟ ولكنه حلم لاينبعث من نفسك الطيبة ، ولا من عقلك النير ، ولا من فكرك العادل . . بل يصدر عن غريزتك الجامحة ، وأنانيتك الطائشة ، ورغبتك المستورة فى أن تكون مجرما لتستطيع أن تكون سعيداً ! . .

هو ذاك . . فأنت تشعر على الرغم منك أنك لن تكون سعيداً الا اذا قتلتنى . . اذا اخمدت صوتى ، وخنقت فنى ، وضيعت مواهبى ، وانتزعتنى من بين جمهورى كما لو كنت تنتزعنى من بين أحضان عشيق غافلك فجأة وسرقنى ! . .

والعجيب أنك أصبحت تقول وتؤكد انى أخونك لأنى أظهر على المسرح ، وانى أخدعك لانى اغنى واطرب الناس، وانى أغرر بك لأنى اتلقى تحايا المعجبين . . فكيف يمكن والحالة هذه أن نتفاهم ، وكيف يمكن أن ينمو حبنا ويزدهر ويعيش ؟ . .

أن خيالك المريض يوسوس لك أنه من المستحيل أن تكون حبيبتك فى حياتها الخاصة ملكا لك ، مادامت فى حياتها العامة ملكا للجميع . ولكن هذه الفكرة خطأ مروع، كثيراً ماأشقى الرجال . . اذ الحياة العامة يا صاحبى شىء والحياة الخاصة شىء اخر . ونحن النساء نستطيع فى حياتنا العامة أن نظهر بشخصية غير شخصيتنا ، وفكر

غير فكرنا ، وعواطف غير عواطفنا كي نتمكن في الواقع من أخفاء حقيقة ميولنا ورغباتنا .. وليس معنى ذلك اننا منافقات مخاتلات ، بل معناه ان المرأة انسان عملي وذكي يعرف كيف يفصل بين عالم المجتمع وعالم القلب ، وبين واجب المجتمع وواجب القلب

وانا بحكم مهنتي وفني مضطرة الى مصانعة المجتمع ، كما اني بحكم غرامي وحبي مضطرة الى الاخلاص لك ! ..

على أني أخلص لك ياحبيبي في كل لحظة وفي كل وقت .. فأنا عندما أغني أفكر فيك ، وعندما أبدع في غنائي استمد الوحي منك ، وعندما يهتف الجمهور أعجابا بي أتمنى لو استحال هذا الهتاف الى بخور كي أحرقه عند قدميك ! ..

فهل تستطيع أن تفهم ذلك ؟ .. وهل تستطيع أن تحبني وتحب في نفس الوقت مهنتي وفني ، أم يجب على أن أنتحر كمطربة وممثلة وفنانة لأرضيك ؟ ..

لقد فكرت طويلا ، وانعمت النظر طويلا ، وادركت .. أدركت بكل بساطة أني بجب ان أنتحر .. يجب أن أموت .. والا فقدتك ! .. ولهذا وطنت العزم على الخضوع والتسليم ! ..

أجل .. عقدت النية على توديع فني ، ونبذ جمهوري، والمفامرة بشهرتي ، وتكريس البقية الباقية من شبابي للحياة معك في غمرة العزلة التي تشتهيها ، وفي ظلمة الوحدة التي لا يضيئها غير الحب ! ..

فالوداع اذن للاضواء المتلألئة .. الوداع لصخب الجمهور وجلجلة الانغام وقصف الموسيقى ! .. الوداع لأمطار الورد ، وأمواج الهتاف ، وكبرياء النصر والعظمة

والتفوق ! .. سأترك كل هذا .. أتسمع ! .. سأتركه من اجلك غير آسفة . ومنذ اليوم ـ منـذ الليلة ـ لن اظهر لا على المسرح ولا فى الحياة . لن أعيش الا فى ظلك ، ولن اغني الالك ، ولن أنشد فى الحياة غير حبك يا حبيبى! .. فعسى أن تقدر تضحيتي ، وعسى أن تهبنى الى الابد قلبك كما وهبتك الى الابد كل شيء ! ..

***

وبرت أدلينا بوعدها ، فودعت المسرح وودعت المجتمع .. وانقطعت عن الفناء والتمثيل خمسة أشهر ، عاشت فى غضونها قانعة بحبها ، راضية بحظها ، سعيدة كل السعادة بانعقاد سحب الظلمة والنسيان حول شـــهرتها ومجدها ..

ولكن هذه الظلمة نفسها هى التى غدرت بها ، وهى التى بدلت على مرالزمن من أخلاق وعواطف حبيبها ..

كان يعبدها وهى ملكة ، وكان يقدسها وهى نصف الهة .. فلما أصبحت فى بيته امرأة كبقية النساء ، مجردة من فتنة المجد ، عارية من طلاء الشهرة ، تنكر لها وتبرم بها .. وأحس أنها غير تلك المخلوقة العظيمة المجيدة التى الهبت خياله ، وأضرمت حبه ، وأشعلت كبرياءه فيمـا مضى ..

وهكذا شعرت الفنانة المسكينة أنه قد بدأ يكرهها ، وأن تضحيتها قد ذهبت سدى .. فاستجمعت قواها وانفصلت عنه ، ثم عادت الى المسرح وقد وطنت عزمها على الا تهب قلبها وحياتها الا للرجل الذى تستطيع ان تجربة طويلا ، وتمتحنه طويلا ، وتثق اخر الامر بانه يحب فنها المعنوى الباقى أضعاف ما يحب شـخصيتها المادية الزائلة ! ...

قبلة من بعيد

« وهذه رسالة شائقة كتبهـــا الشاعر والروائى الصينى المشهور « تيان ـ تسن » ، وبعث بهــا الى حبيبته التى كانت تستكمل دراستها فى احدى جامعات أوربا»

انى فى هذه الليلة منقبض الصدر محزون ياحبيبتى!..

السماء زرقاء ، والبحر أخضر ، وسلسلة شاهقة من الجبال البيضاء تفصل بيننا ! ..

حبذا لو اســتطاع الحمام الامين ان يحمــل اليك رسائلى ! ..

حبــذا لو أســتطاع النهر أن يحمــل اليك غمغمــة قلبى ! ...

ان الزهور تلمع فى الظــلام ، وأشـــعة القمر تســـطع كالزهور .. والكون باسره يختلج حرارةونضارة وحياة..

ومع ذلك وبرغم حزنى ، أريد أن أنشد الشعر هــذه الليلة ، وأريد أن احلق واغنى ! ..

اريد أن أعيش فى هذا الحزن المروع الذى يمثلك لى ، وينفخ فى طيفك الروح ، ويصب فى روحك عصارة الدم البشرى ! ..

ولو تقلص هذا الحزن وزال ، فأخشى ما أخشـاه أن يطوح بى الدوار ويصيب الجنون عقلى ! ..

***

انت الآن أمامى .. لقد انبثقت من أعماق حزنى ، وانى لاراك من خلال هذا الالم العذب واضحة المحيا جلية القسمات ..

ان اشراق وجهك ليشبه اشراق الفجر فى ضحوة الربيع ، وآن لمعة عينيك لتشبه لمعة اللالىء الصافية فى ظلمة البحر العميق..وان اختلاج شفتيك ليشبه اختلاج التينة الناضجة عصفت بها الريح فأبت ان تسقط على التراب ! ..

ان النبات ليعمر بالحياة فى عنفوان الربيع ، فكيف لا يعمر بك قلبى وانت فى عنفوان الحسن وفى مجد الشباب ؟ ! ..

ان ابتسامتك لتنسينى سرعة زوال الربيع ، يا أيتها المراة التى لايكاد يراها المتسول حتى ينسى جوعه ! ..

ان صوتك أجمل من حفيف النسيم فى شجر الصفصاف ، وأنفاسك أحر من الموقد المقدس حيث يحرق البخور !

أنت أجمل من زهرة يانعة غشاها ضوء القمر .. انت جميع ما فى الارض من ازهار وعطور والوان .. فدعينى أنتزع لك من صلب حزنى قبلة فياضة بالفرح كالامل العتيد ! .. قبلة أنضر من الفرح وأشهى من الامل ! ..

وستكون قبلتى من الرقة والعطف والحنان ، بحيث تشعرين كأن جناح فراشة سحرية يرف على وجهك ! ..

هذه هى القبلة ! .. فيها قلبى ، وفيها روحى ، وفيها عالمى ! ..

ومتى أضطرب النسيم ، وجن الهواء وانطبعت على شفتيك قبلتى .. فليس شك فى أن الريح المدوية سترحمنى ، وتحمل الى من أقصى العالم قبلتك أنت أيضا ! ..

وعندئذ ، وفى اضطرام جو الحياة واشراق شمس الدنيا ، ينبض قلبى وفكرى ، وتلتهب أعصابى وارادتى .. فتسجد لى الناس ، وتحسدنى الآلهة !



عندما يشقى العبقرى

كان تولستوى شقيا بزوجته ، كما كان سقراط من قبل .. لم تؤمن زوجته يوما بتعاليمه ولم تفهمها ، فاعترضته فى تأدية رسالته .. واجتهدت فى ان تحول بينه وبين تحقيق مبادئه ، وأوغرت صدر أبنائه عليه ، وجعلت من افراد أسرته أعداء له ..

كانت امرأة مثقفة ، ولكنها كانت متعصبة لتقاليــــد بيئتهما ، مفتونة بحب العظمة والشهرة والمال والجاه العريض . فلما خرج تولستوى على وسطه الارستقراطى واعتنق حياة الفلاحين ، واندمج فيهم ، واشتغل معهم فى فلاحة الارض وفى مختلف الاعمال اليدوية المرهقة ،انقسم أبناؤه عليه .. فريق يؤيده ، وفريق يعارضه ، فذعرت الكونتس ، واستهولت من زوجها هذا التحول ، وناصبته العداء جهرة ، ورمته بالهوس والجنون . ولما كتب وصيته المشهورة التى نزل فيها عن جميع حقوقه فى مؤلفاته للشعب، نغصت عليه عيشه ، وسعت الى سرقة وصيته

والواقع ان الكونتس تولستوى ، عندما نشرت مذكراتها، ارادت ان تبرر مسلكها ، وتثأر من زوجها ، وتمثل ذلك الرجل الوديع الطيب السمح فى صورة الانسان الانانى المتكبر المتعصب القاسى . ولكن من ينعم النظر فى مذكراتها يحس على الفور أنها فشلت فى انتقامها ، وانها لم ترسم

صورة صادقة من زوجها .. بل رسمت فى الحقيقة صورة مروعة منها هى . فهى تعترف أنها لم تكن فى يوم من الايام سليمة الاعصاب ، متزنة العقل والعاطفة .. بل كثيرا ماكانت تفكر فى الانتحار عقب كل مشادة تقع بينها وبين زوجها . ولقد كانت فكرة الانتحار هذه مستولية عليها منذ صباها ، تراود ذهنها ، وتحتل خيالها وتبتليها بنوبات متعاقبة من الهستيريا ..

والعجيب فى أمر هذه السيدة الارستقراطية المثقفة ، أنها لم تستطع أبدا أن تسيطر بثقافتها على فكرها وأعصابها .. فكانت لاتفهم كيف يمكن لزوجها أن يظهر فى بيته وأمام الناس بمظهر البشاشة والبهجة والفرح ثم يخفى فى الوقت نفسه حقيقة شخصيته ، ولا يحفل البتة بالاثر الخطير الذى تحدثه افكاره وتعاليمه فى محيط اسرته

كانت لا تفهم ان هذا التناقض فى مسلك تولستوى، بل هذا الازدواج فى شخصيته ، يرجع الى طبيعة عبقريته التى كانت تفرض عليه احتمال الحياة فى بهجة ومرح وهى تضطره رغم ذلك الى التشبث بفكره ، وستر هذا الفكر المتمرد الثائر خلف مظاهر الرقة والبشاشة التى يحتمها عليه مركزه ، بوصفه رب أسرة لاتشاطره اراءه ولا تعاونه على تحقيقها .. فأقصى ما كان يغيظها منه ، هو قدرته العظيمة على كبح جماح أعصابه واصطناع تلك الرقة والبشاشة بينما افكاره وتعاليمه تبذر بذور الفتنة والشقاق بينه وبين اولاده

ولقد كانت تعد ذلك منه قسوة وأنانية ونفاقا . . ولكنها لم تفهم أن بشاشة العبقرى الظاهرية التى تتعارض مع صرامة أفكاره ، ليست قسوة ولا أنانية ولا نفاقا .. وانما

هى رغبة نبيلة فى مسالمة أعداء يمتون اليه بأوثق الصلات ، أو هى منصرف يلطف من ألم التفكير ، أو هى اطمئنان الى الحقيقة التى انتهى اليها العبقرى ، أو هى فترة مهادنة يعقدها العقل لمصلحة العمل ..

ومما يدل على مبلغ تحامل الكونتس على زوجها ، انها تتهمه فى مذكراتها بالصلف والاعتداد بالنفس والظمأ الجنونى الى المجد ، ثم لاتدلل على ذلك ببرهان واحد أو بحادثة واحدة • وهى فوق ذلك لا تفتأ تنتقص من قدره ، وتعلى من شأنها هى . فتقول عنه بالحرف الواحد : « انه مخلوق قذر تنبعث من جسمه ويديه رائحة كريهة » . ثم تقول عن نفسها : « أنا امرأة مولعة بالطهارة .. وكل شيء طاهر هو شيء مقدس لدى . وانى فى أعماق نفسى أوثر الفنون والاداب والقيم المعنوية العليا على كل ماهو تافه ووضيع مما تهتم به معظم النساء .. » وفى هذا ، وفى غيره ، تميط الكونتس اللثام عن وجهها ، وتدلل على أنها كانت مزهوة بفضيلتها ، فخورا بذكائها ، غيورا من زوجها ، تعتقد أنها مساوية له فى التفوق ، وانها مصدر وحبه وسبب عبقريته ..

على أننا نشعر فى أقوالها بشيء من الصدق عندما تتحدث عن حب تولستوى الشديد لها •• بيد انها فى هذا الجانب الوثيق الصلة بأنوثتها ، كانت أيضا مغرورة ، وكانت واهمة •• لان تولستوى كان يحبها بجسمه ويكرهها بقلبه • كان يحبها بحيويته الجثمانية المتدفقة لا بفكره ولا بوجدانه •• كان معظم الازواج المحبين ، يتهلف على امرأته ، فتظن المرأة ان هذا التلهف الحسى المجرد هو الحب الكامل العميق ، فتأخذها نشوة الاستبداد والكبر ، فتحاول أن تمتلك زوجها ، وتحوزه ، وتخضعه ، وتسيره وفق

مشتهياتها . ولكن الزوج لايكاد يرتد الى عقله حتى يرى امرأته على حقيقتها ، فلايتردد فى محاسبتها على غلطاتها ونقائصها حسابا عسيرا ..

وهذا ماكانت تسميه الكونتس أيضا تناقضا .. اذ لم يكن فى وسعها ان تفهم ان تولستوى الذى احبها بجسمه كان يريد فى الوقت نفسه أن يعجب بها بعقله .. كان يريدها مخلصة لفكره ، أمينة على رسالته ، حريصة على مبادئه ، مشجعة له على تضحياته ، تشاركه فى مطالب العقل والروح كما كانت تشاركه فى رغبات الحس والبدن !

وهذا الخلاف هو الذى حفر الهوة العميقة بينه وبينها .. تلك الهوة التى نشعر بعمقها فى هذه الرسالة الفذة التى كانت اخر رسالة كتبها تولستوى الى زوجته :

قال الروائى :

لن ارجع اليك هذه الليلة يا عزيزتى ، وسأمكث فى بيت صديقى فيودور .. حتى أطمئن الى مستقبلى معك، واثق بأن كل شىء فيك قد تغير ..

وقد تدهشك منى هذه الجرأة وهذا العزم .. ولكن ما حيلتى ، لم يعد فى وسعى أن أحتمل . ان حياتى بالقرب منك أصبحت بليدة خاملة بحيث بت أخشى منها على شخصيتى ، وعلى عملى ، وعلى كل ما كنت احلم به من عظمة ومجد ..

وأرى من واجبى فى هذه الساعة الفاصلة أن أشرح لك كل شىء ، واصارحك بالسبب الذى من اجله عقدت عزمى على مغادرة البيت ...

أنت يا عزيزتي امرأة مصابة بجنون الحب والغيرة . لم يكد القدر يحقق أحلامك ويجعل منك زوجة لي ، حتى اضطرب عقلك ، واستعرت عواطفك ، وخيل اليـــك أن الزواج لم يخلق الا ليكون وسيلة مشروعة يجب ان تسخر لخدمة الحب والغيرة ..

فالحب في نظرك ، ولا سيما الحب المتئد غيرة وشكا ، هو المجهود الفرد الذى يجب ان تبذله المرأة في ظل الزواج، وهو الغاية الوحيدة التي من أجلها تتزوج ، وهو المتعة الدائمة التي يجب أن يقدرها الرجل ، ويعب فيهـــا ، ويعيش منها ولها ..

وهكذا أحببتني بعد زواجنا حبا صاخبا عاصفا .. زين لك خيالك الجامح أنه لا يجب أن يضعف ، ولا يجب أن يفتر ، ولا يجب ان يسبقه شيء او يعترضه شيء او يقف في وجه سيله الجارف اى شيء ...

وكنت أحبك انا أيضا وما زلت أحبك . ولكنى شعرت، وا أسفاه ، انك تحبين حبك وغيرتك اكثر منى ، وتحبين ملذاتك ونزواتك أكثر من صـــــحتى ، وتحبين غرائزك اضعاف حبك لواجبك البيتى ..

على أن واجب البيت عندك هو الحب .. فالعنـــاية بشئون زوجك لا تهمك ، وتربية أطفـــالك لا تهمـك ، ومسئوليتك حيال عملى وجهادى لا تهمك أيضـــا . كل هذه الواجبات المقدسة يخضعها جنونك لعـــاطفة الحب المقرونة بالغيرة . وما دامت هذه العاطفة مشـــتعلة فى صدرك ، فأنت مبتهجة ، وأنت سعيدة ، وأنت معتقدة - بل مؤمنة - بأن زوجك هو الآخر لابد أن يكون مبتهجا، ولا بد أن يكون سعيدا ، ولا بد أن يكون مثلك مؤمنـــا

بأن ملذات وآلام الحب والغيــــرة ينبغى أن تظل فوق مصلحة العائلة ، ومصلحة الابناء ، ومصــــلحة العمل ، وقانون الحياة باسرها .. تلك هى نزعتك الطائشة .. ذلك هو شيطانك . أنت عاشقة لا زوجة ، انت انثى لا امرأة ، انت غريزة تسعى لا مخلوق اجتماعى عاقل متزن يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات ...

وانى لاصارحك هنا بأن حبك العاصف الغيور المخبول أرهقنى واضجرنى ولفنى فى شبكة مروعة من البــــلادة والكسل والخمول والظلام ..

والحق انى بت ابحث عن نفسى فلا اجدها ، وافتقد عقلى فيفر منى ، وأهيب بارادتى فلا أقع الا على أعصابى الخائرة ، وقواى المحطمة ، وعزمى المسلوب ! ...

نعم .. ان عدواك سرت الى .. فأنا اليوم خائف منك وخائف من نفسى .. خائف منك على شخصيتى وعبقريتى وعملى ، وخائف من نفسى أن أطاوعك فأجهز بيدى على أحلامى ومستقبلى ! .. وهذا الخوف المزدوج هو الذى دفعنى الى الرحيــــل .. اذ كيف يمكن أن أعيش مــع زوجة تأبى الا أن تمثل طوال حياتهــا دور العاشـــقة المفتونة الغيــــور ؟ ...

ان الحب يا عزيزتى جميل ، ولكنه ليس كل شىء فى الحياة .. وأروع ما فى الحب هو التضحية ! ... فاذا لم تضحى ببعض حبك من أجل أسرتك وأولادك وزوجك ، فأية قيمة لهذا الحب وأى نفع منــــه ؟ .. انه ليتحول اذن الى أنانية جنائية لا بد أن تقتل الاسرة ، وتقضى على الحب نفسه شر قضاء ! ..

وانا أحس ان حبى لك سيموت من فرط عنف حبك

وغيرته وجبروته المتسلط الاعمى ..

فثوبى الى رشدك وفكرى ..

انعمى النظر وافهمى .. افهمى أن على الرجل فرضا آخر غير الحب ، وعملا آخر غير العاطفة ، ورسالة اخرى غير الفناء والموت بين أحضان امرأة ! ...

الرجل يعيش للبيت والعالم ، للقلب والعقل ، للاسرة والانسانية . فلا تحبسيه بين جدران قلبك ، ولا تسجنيه بين حنايا ضلوعك ، ولا تقتليه فى حيوانية بدنك ! ...

انك ان أطلقت الرجل كسبته ، وان حررته انقذته ، وأن تعففت عنه ولو فترات ، سموت به وقويته وشجعته وأغريته بعظائم الاعمال ! ...

فأطلقينى من ربقة حبك المجنون والا أطلقت نفسى .. طهرينى من لوثة غيرتك الوحشية والا طهرت نفسى . مكنينى بتضحيتك فى سبيل أولادك وبيتك من أن أضحى أنا الآخر ببعض قوتى وشبابى فى سبيل انقاذ نبوغى وتوكيد عبقريتى وخدمة العالم ! ...

ان مجد المرأة لايتمثل فى حب الرجل ، بل فى استخدام حبها وحنانها لخلق الرجل ! ... فاخلقينى بحبك بدل أن تقتلينى ، انقذى البقية الباقية من قوتى بدل أن تجهزى على ! . ولكنك لو استرسلت فى غيك ، وأبيت الا أن تتبعى شيطان حبك وغيرتك ، فسيثبت لك الزمن ان فى مقدورى ان ادافع بمفردى عن شخصى ، وادافع بمفردى عن عملى ، واستغنى آخر الامر عن حبك كما استغنيت انت عن التفكير فى مصلحتى ! ..

هذه رسالتى اليك فاقرئيها بامعان وفكرى .. فكرى ولا تنتظرى .. لا تنتظرى أن أعود الى البيت قبل انقضاء شهر على الاقل ... فاذا عدت ووجدتك نفس المرأة الطائشة ، ونفس العاشقة المفتونة الغيور ، ونفس الزوجة المستهترة ، فسأقبل يدك شاكرا ، وأعتمد بعد الله على نفسى وأودعك الوداع الاخير ! ...

***

وقد احدث هذا الخطاب أول الامر أبلغ الاثر فى نفس زوجة تولستوى .. فهذبت بعض الشىء من أخلاقها ، ولطفت من غلواء حبها وغيرتها . ولكنها عادت فاستبدت بالرجل مما اضطره فى نهاية حياته الى هجر بيته مرة أخرى ، والموت وحيدا شريدا بائسا فى غرفة عارية باحدى المحطات ...



أول وآخر حب

« من الفنانة الاسبانية صانعة العرائس الشهيرة « كرمن نوفارو»
الى جارها « رامون »

عزيزى رامون :

لاريب أنك ستدهش عندما تقرأ هذا الخطاب ، وسيأخذ العجب منك كل مأخذ فأنت تعرفنى .. ولكنك فى الحق لم تعرفنى أبدا ، ولم تهتم بى لحظة واحدة ؛ ولم تكلف نفسك ولو مرة عناء التحدث الى ، أو التأمل فى وجهى ، أو الوقوف بجوار مقعدى المتحرك المخيف الذى يلقى الذعر فى قلب كل من تحدثه نفسه بالتطلع الى ..

نعم .. ان من تكتب اليك اليوم هى جارتك .. هى كرمن .. كرمن بعينها .. تلك الفتاة الشقية التاعسة المنكودة الحظ المصابة بشلل نصفى ، والتى عدا عليها القدر ، وقست عليها الدنيا ، وأجبرتها وهى بعد فى مقتبل العمر وشرخ الشباب ، على أن تقضى حياتها البائسة الموحشة فى مقعد متحرك صغير ذى أربع عجلات ...

هو ذاك يا عزيزى .. ان جارتك المشلولة ، جارتك المنبوذة ، جارتك التى لا أمل لها فى الصحة ، ولا أمل لها فى القوة ، ولا أمل لها فى التمتع بأية فتنة من مفاتن

هذا الكون الرائع البهيج ، هى التى استجمعت اليوم مدخر صبرها ، ومدخر عذابها ، ومدخر عواطفها ، وتجاسرت ، وكتبت اليك هذا الخطاب ..

فلاتغضب يارامون واسمع قصتها .. اسمع ولا تحفل بها .. اسمع ولا ترث لحالها . اسمع ولا تفكر فى الاتصال بها ، أو العطف عليها ، أو محاولة انقاذها من شقائها

انى فتاة ، عشت أعواما طويلة فى ظل المرض . فالمرض احتوانى ، والمرض طوقنى ، والمرض أقام حاجزا مروعا بينى وبين الناس .. ليس لى غير عقل يفكر ، وصدر يتنفس ، وقلب يخفق ، وعيون مفتحة ، ولهفة قلقة حائرة مذيبة ، تحطم نفسى وجسمى أضعاف مايحطمها المرض الذى شاءت الاقدار الغاشمة ان تبتلينى به ..

فالحياة تمر أمامى ، وقدماى عاجزتان عن اللحاق بها . والناس يمرحون حولى وشبابى عاجز عن ادراك خطواتهم ، والمسافات والابعاد الشاسعة تنادينى ، واعضائى الواهنة المشلولة عاجزة كل العجز عن تحقيق اية استجابة ، أو تلبية أى نداء ..

هكذا عشت فى صحراء نفسى ، وفى بحر خيالى ، وفى محيط أفكارى وعواطفى ، لا أرى غير ذاتى ، ولاأفزع الا اليها ، ولاأفرح الا بها ، كأنى قد خلقت من طينة غير طينة البشر .. وكأنى ماجئت الى هذا العالم الا لاعيش بمعزل عنه .. أود أن أندمج فيه فينهرنى ، وأود أن ألمسه فيزجرنى ، وأود أن أداعبه ولو بالنظر فيفرمنى ، ساخرا بحيرتى ، هازئا بألمى ، شامتا ومقهقها فى وجهى قهقهة وحشية مدوية هى حكم اعدام قاطع تصدره الطبيعة

على شبابى وحياتي ...

فالموت اليوم هو صـديقي ، والوحـدة الدائمة هى نصيبى ، وابتسامات الشفقة والرثاء هى كل ما جنيته حتى اليـوم من حقل النفس الانسـانية ومن القلب البشرى ..

فلكى أجد منصرفا لعذابى ، ومتنفسا لصـدرى ، أولعت بفن عجيب .. مضيت أصنع عرائس من قماش بيضاء وزرقاء وحمراء ، أمثل فيها الحب والامل واليأس والهزيمة والعذاب ، واعهد بها الى والدى الشيخ كى يبيعها فى السوق

ولقد أعجب الناس بعرائسى ، وقالوا عنى انى فنانة نابغة ، وأسرفوا فى مدحي واطرائى اسرافا حاولت أن اقنع به واكتفى ، وأن أجعل منه غاية أملى وقبلة حياتي فى هذه الدنيا ، ولكنى لم أستطع ...

أجل .. لم استطع ان أحل العرائس محل الحقائق ، وأن أرضى بالوهم دون الواقع ، وأن اعيش فى ضبـاب الحلم على حساب كل ماهو منظور ومحسوس .. فازداد المى ، وازداد شقائى ، وقربنى الفن من الدنيا بدل أن يقصينى عنها ، فشعرت بلوعة مرة وحسرة لاتطاق ..

وكانت نفسى تهفو الى شيء اقوى من الفن ، واعمق من الحلم .. واغزر من الخيال ، وكنت لا ادرى ما هو هذا الشيء الذى أصبو اليه حتى رأيتك يارامون وأدركت أنك تسـكن بجوارى ، واحسست بومضات روحك تشـع على . فاتقد وجدانى ، واحتدمت عواطفى ، وأحببتك حبا جارفا وأنا لا ادرى ..

أحببتك دون أن أخاطبك ، ودون أن أشعرك ، ودون

أن ادع نظرة واحدة من نظراتى اليك تفضحنى أمامك ، وتمزق القناع الكثيف الذى أسدلته عمدا على وجهى ، وعلى قلبى ، وعلى كل جارحة فى ..

وكنت أنت تمر بى فى غدواتك وروحاتك ، وتلقى على نظرة آسـفة ، وتحيينى فى أدب وفتور . وكنت أنا اعشق عينيك السـوداوين ، وأعبد شـعرك المموج ، وأترامى صريعة تحت هيكل حسنك ، وأتمنى على الله ألا يحرمنى من رؤيتك ، وأن يبقى لى نور عينى لأتملى من سحر طلعتك ، وبهاء رجولتك ، وفيض العزة والجلال الذى يسكبه الصبا الناضر عليك ! ...

ولقد أسعدتنى يارامون وأنت لاتعلم ! .. جعلت منى أسعد مخلوقات الله طرا وانت لاتدرى ! فطفقت أصنع العرائس تحت تأثير وحيـك ، وأبدع وأفتن فى غمرة الهامك ، فشعرت بالنعمتين الخالدتين : نعمـة الفن ، ونعمة الحب .. نعمة الخيال ، ونعمة الحقيقة .. نعمة السماء ، ونعمة الارض ! ..

والواقع أنى ملكت الدنيا منذ أن عرفتك .. لم أعد أطمع فى شىء ، أو أحزن على شىء ، أو أنظر متلهفة متحرقة الى شىء . نسيت قدمى المشلولتين ، وعجزى الشائن عن الحركة ، وذلى النفسـانى الفظيع ، وبدأت أرى الحياة فى حلة جديدة ، وأحسست أنى أتحرك ، وانى أتحمس ، وأنى اختلج ، وأنى أعيش ألف مرة أكثر مما يعيش أوفر الناس صحة ، وأصلبهم قوة ، وأقدرهم على مواجهة السعادة ومجابهة النعيم

وكل هذا يارامون وأنت غافل عنى ، نافر منى ، غير مكترث لى ..

لم تكترث لى فى حين انك انت الذى خلقتنى ! .. كل فكرة منى كانت رجع صداك ، وكل جمال ابدعته كان مستمدا من علاك ، وكل عاطفة خامرتنى كانت تتفجر من ينبوع حسنك ومن فيض بهاك ...

ومع ذلك فلم يخطر على بالى لحظة واحدة أن اكلمك أو انبهك ، أو أشعرك ولو من طرف خفى انى أعبدك ! .. كان الصمت يغمر حياتى ، وكان صمتا مليئا بك ، وكنت أسعد النساء بصمتى ، أحرص عليه حرصى على بصرى ، وأجد فيه نعيما لايمكن أن تشوبه شائبة الخيانة والغدر ، ولايمكن أن يتطرق اليه أى خوف وأى قلق وأى دنس ! ..

وكنت قد آليت على نفسى الا أتكلم أبدا .. فلماذا تكلمت اليوم اذن ، وما الذى أنطقنى ، وماهى تلك القوة التى أطلقت لسانى من عقاله ، ودفعتنى بالرغم منى الى طرح سر نفسى ، وجوهرة قلبى تحت قدميك ؟ ..

ان هذه القوة يارامون هى أيضا قوة القدر ! .. القدر الذى يشاء اليوم أيضا أن يطعننى فى شغاف قلبى ويسدد الى سهمه الاخير ! .. يجب .. يجب أن أرحل يارامون .. ان والدى سيغادر مدريد بعد عشرة أيام ، وسينتقل الى اشبيلية ليرأس الفرع الجديد الذى افتتحته الشركة التى يعمل بها ! .. ويجب أن أطيعه ! .. يجب أن اتبعه ! .. وهل فى وسعى الا أن أطأطىء الرأس صاغرة وأطيع ؟! ..

القدر اقوى منى ، واقوى من حبى ، وهو أبدا مسلط على ! .. فبعد عشرة أيام فقط لن أراك ياحبيبى ! .. سأحرم منك ! .. سأمزق فؤادى وروحى وعقلى

حسرة عليك ! .. فكيف كان يمكن أن ارحل دون ان أكاشفك بحبى ، وكيف كان يمكن أن ارحل حاملة سرى العميق فى أطواء صدرى ، وكيف كان يمكن أن أرحل دون أن اشعر ولو مرة واحدة فى حياتى بأنك هبطت الى قرارة نفسى ، واندمجت فى مقدس قلبى ، وأصبحت زوجى بالعاطفة والفكر والروح ؟ .. زوجى ! .. يالها من نعمة لن أسعد بها أبدا ولابد أن تسعد بها يوما امرأة غيرى ..

أجل .. لهذا كتبت اليك ! .. لهذا اجترات واقتحمت حرمة حياتك ! .. فافهمنى .. افهمنى جيدا واذكرنى ! أنا أريد ان تكون سعيدا لأستطيع ان اشعر أن حبى العظيم لك تألق وازدهر وآتى أبرك الثمرات .. فتزوج يارامون وانسنى ! .. تزوج ، على أن تحب امراتك من اجلى ، وتخلص لاولادك من أجلى ، وتكون مثال الزوج النبيل الوفى من اجلى ! .. وكلما احببت امراتك اسعدتنى ، وكلما أخلصت لاسرتك أرضيتنى ، وكلما تفانيت فى البذل والتضحية من أجل أولادك ، أحسست أنا بالفكر والروح أنك أصبحت تحبنى ! ..

فاحمل قلبى بين يديك مشكاة تضىء امامك فسحة الدنيا وتهديك سواء السبيل .. واياك أن تتألم بسببى ! اياك أن تعكر صفو حياتك بالتفكير فى حظى ! .. سأعرف كيف أحتمل مصيرى ، وسأعرف كيف أخنق لوعتى ، وسأعرف كيف أعيش سعيدة بوحدتى ، سعيدة بحسرتى ، سعيدة بشللى ، مادمت على يقين من أنك قد عملت بنصحى ونفذت وصيتى ! .. ولسوف تعمل ولاشك بهذا النصح الثمين الغالى لان الطيبة متأصلة فى دمك ، والنبل طبيعة فيك ، وحب الخير للخير شيمتك ! ..

فتزوج وكن وفيا .. تزوج وكن سعيدا . ومتى وصلتنى انباؤك ، وعلمت علم اليقين أنك سعيد بقرب امرأتك ، سكنت لوعتى ، واطمأن قلبى ، وشعرت أعمق شعور وأبلغه انك أحببتنى أنا أيضا وتزوجتنى ! ..

فالوداع ياحبيبى واذكرنى .. اذكرنى واحرص على الوحى النبيل الذى أريد أن يخلفه فى قلبك صدق حبى . هذا الحب الذى هو أول واخر حب فى حياة فتاة تاعسة مشلولة .قدستك وعبدتك وأنت لاتدرى ! .. الوداع !»

***

وتزوج رامون وأعقب طفلا ذكرا ، وكان مثال الزوج المخلص الوفى . ولكنه لم يوفق فى اختيار امرأته ، وقاسى الامرين من حدة طبعها وغلظة أخلاقها ، وأوشك أن يطلقها

ولكن كرمن التى كانت تتسقط انباءه ، كتبت اليه مرة اخرى تثنيه عن عزمه ، وترده الى رشده ، وتذكره بواجبه المقدس نحو ولده ، ونحوامرأته التى لابد له أن يصبر عليها ، ويكافح ما استطاع لتبديل أخلاقها ، وتهذيب طباعها ، حرصا على هنائه و راحته ومستقبل اسرته ..

ونزل رامون على حكم صانعة العرائس ، ولم يطلق.. ولكنه لفرط عذابه أحس فراغا فى قلبه ، وحاجة ملحة الى صداقة طاهرة بريئة تنقذه .. فشرع بدوره يكتب الى الفتاة المشلولة خطابات ملؤها اللوعة والحسرة والكمد ، يفرج بها عن نفسه ، ويتخلص بين سطورها من عبء همه، ويصف فيها شقاءه الزوجى ، ثائرا على الحظ الفاشم الذى خان صديقته ، ونكل بها ، وحرمه قربها ، ووهبها النبوغ والفن ، ولكنه ضن عليها بالقدرة على الزواج ، والقدرة على الامومة ، والقدرة على الحياة

الشرق والغرب في امرأة

الكاتب المفكر « كرومسوامى » يعتبر من أشهر ادباء الهند ، ويلى الشاعر طاغور فى الشهرة والمكانةالادبية. وقد تزوج هذا المفكر فتاة هندية محافظة اراد ان يجعل منها سيدة عصرية كاملة ، فكتب اليها يوما هذه الرسالة الطريفة :

أنا لم اقترن بك يا حبيبتى لأعيش بجوارك تلك الحياة الشائعة التافهة الرخيصة التى يحياها معظم الازواج .. كذلك أنا لم أقترن بك لأتمتع بجمالك فحسب ، وأنعم بقربك فقط ، وأرضى بك على علاتك ، وأتقلب فى جوك الناضر الساحر كما يتقلب كل رجل فى جو أنثى يحبها ، ويتمنى على الله الا يغير الزمن من أخلاقها وطباعها شيئا ..

الحق انى تزوجتك ، وانا أعلم انك فتاة محافظة ، شرقية المنزع والتربية والروح .. فتاة تخاف الرجال ، وتخشى المجتمع ، وترتعد فرقا من الحرية .. فتاة لم تعرف الحياة ، ولم تخبر الناس ، ولم تنطلق فى فسحة الدنيا .. فتاة كبلتها التقاليد البالية ، واستبدت بها العادات والنظم الرجعية ..

فأنا شاب شرقى الوراثة غربى الثقافة ، تزوجت فتاة شرقية لاصوغ منها مخلوقا على مثالى ، مخلوقا لا ينكر شرقيته اطلاقا ، بل يحاول أن يقبس منها أجمل ما فيها ،

ثم يضيف الى هذا الجمال أروع وأنبل ما فى النزعة الغربية من اتجاهات وميول واساليب فى النظر الى المجتمع

وهذه الاساليب الجديدة هى التى أود أن أبسطها لك فى هذا الخطاب كى يتم التآلف بيننا ..

فاصغى الى يا زوجتى العزيزة : أنت امرأة تخـــاف الرجال وتتهيب المجتمع . ولكنى أقول لك ان قوة الانسان فى نظافته ،وان الانسان النظيف لا يخاف أحدا .. فأنت نظيفة لانك شريفة ، ولان غريزة تمجيد الشرف والمحافظة على العرض كامنة فى أعماق روحك الشرقى .. فتشبثى بهذه الغريزة واخرجى الى المجتمع معى . ومـــا دمت تحترمين نفسك ، فلابد أن يحترمك الرجال ويتأثر أحطهم واوضعهم بهالة الشرف التى تطوق بها الفضيلة جمالك الفتان

ثم انك امرأة ضعيفة ، ضعيفة العقـــل والارادة . . ومنشأ هذا الضعف هو نقص ثقـــافتك ونقص اتصالك بالحياة ..

ففى وسعك استكمال ثقافتك بالمطالعة ، وفى وسعك استكمال خبرتك بملاحظة الناس ، وفى وسعك تربية ارادتك بالاعتماد على نفسك فى تصريف شـــئون بيتك تصريفا مستقلا تستعينين عليه بما أودعته فيك مطالعـة الكتب وقراءة الصحف ومخالطة المجتمع من آراء وأفكار ونظرات

ثم انك بعد ذلك امرأة تنفر من تحمل المسئولية ، وتلقى التبعات جميعا على عاتق الرجل . ولكن شواغل الرجل كثيرة يابنيتى ، وهو لايستطيع أن يجمع بين واجبـــات البيت وواجبات الحياة .. فكونى جســـورا مقـدامة

وفكرى فى شئونك بنفسك ، وعالجيها وفق اختباراتك ، ولا تنتظرى من زوجك أن يهديك ويرشدك الا بعد أن تكونى قد استنفدت عصارة جهدك ..

ثم أنك فوق ماتقدم امرأة لاتهتم بالجانب المعنوى من شخصية زوجها قدر اهتمامها بالجانب المادى .. فعنايتك منصرفة الى طعامى وشرابى وكسائى ، لا الى فكرى ولا الى عقلى .. ولا الى الموضوعات الوطنية والانسانية الخطيرة التى تشغلنى

ان المشاركة الذهنية هى متعة الزواج الموفق ، وهى شعلة الحب التى لاتخمد ، وهى النسيم العليل الذى يلطف من حرارة الغريزة ويسمو بالرابطة الزوجية الى أفق رائع من التفاهم ..

ثم انك أيضا امرأة شرقية مضطرمة الخيال ، مشبوبة التصور ، نزاعة الى الغيرة الطائشة والحيازة المطلقة والتسلط الجارف المستبد ..

فعلام الغيرة وانت ترين حياة زوجك ، وتعرفين من هو ، وتلمسين عظيم حبه ، وعميق اخلاصه ووفائه ؟ .. وحتى لو شعرت ان زوجك يوشك ان يتبرم بك وينصرف عنك ، فواجبك أن تبحثى عن سر تبرمه لعله يكون صادرا عنك ، وواجبك ان تبذلى قصاراك فى منع هبوب العاصفة وفى الاستعانة بدماثة الطبع وكرم الخلق على استمالة الرجل ، وابقائه فى حوزتك ، وصرفه عن التفكير فى أية امرأة غيرك

هذه هى عبقريتك ، والعبقرية التى يمكن أن تتوافر فى كل أنثى ..

هذه أهم ملاحظاتى على شخصيتك . وأنا اعلم علم

اليقين ان اقناعك بوجوب تبديل أخلاقك وعاداتك ، ليس بالامر اليسير .. ولكنى مؤمن بحبك ، مطمئن الى رجاحة عقلك ، واثق من قدرتك على مجاهدة نفسك ، ومغالبة طبعك . وما حلمى الا أن أراك يوما امرأة فذة ، امرأة كاملة ، امرأة تمثل العاطفة والفكر ، القلب والعقل ، الشرق والغرب . امرأة شرقية بعفافها وحيائها ورقتها وتواضعها ودماثة اخلاقها وخفة ظلها ، وامرأة غربية بتوقد ذهنها وقوة ارادتها وجرأة شخصيتها وروعة كرامتها وعمق احساسها بمعنى المسئولية وقيمة الواجب وقداسة الحرية

***

وقد لبت المرأة الهندية سؤل زوجها ، فعملت بنصحه، وظلت تروض نفسها على التحول حتى استطاعت ان تجعل من نفسها الشرق والغرب فى امرأة !



الكرامة فوق الحب

« كانت الرسامة الفرنسية الشهيرة مدام « فيجيه لوبران » قد أحبت فى صباها شابا رائع الجمال اشـتهر بالتقلب والتلون والعبث بقلوب النساء .. فلما حاول أن يغرر بها ، بعثت اليه بهذه الرسالة التحليلية الرائعة »

لماذا تخوننى ياحبيبى ، وأنا مخلصة لك ؟ .. لماذا تخدعنى وتغرر بى وتسخر منى ، وأنا قد وهبتك ثقتى الكاملة وبادلتك الحب فى براءة دونها براءة العذارى ؟

لقد لمحتك بالامس فى تلك الحفلة الساهرة تغازل سيدة ، وتداعبها ، وتلاطفها ، وتوشك أن تختلس منها قبلة وموعد غرام ..

أليس كذلك ؟ لاتكذب .. هذا غير خليق بك ، فقل لى ما سر نفسك وما حقيقة شخصيتك ، وكيف يمكن أن تكون مثال المحب الصادق الوفى وأنت معى ، ومثال المحب الصادق أيضا وأنت فى صحبة غيرى ؟!

هل أنت رجل أم ممثل ، هل انت انسان أم مهرج ، أجبنى ؟

الحقيقة انك مخلوق صلف مغرور ، يود أن يستميل جميع النساء : ويستمتع بجميع النساء ، ويشعر بلذة

الزهو والخيلاء وهو يخضع لسلطانه جميع النساء !

انت رجل لا قلب لـــه ، ولا ضمير ، ولا عاطفة ، ولا احساس ، أنت كالنحلة ترف على جميع الازهار ، وتستخلص العسل من هذه وتلك ، دون ان تستقر على زهرة ، ودون ان تعرف للراحة او السكينة أية قيمة أو متعة !

والغريب أنك لفرط غرورك تعتقد أن جميع النساء غبيات وان ليس فيهن من تفهمك ، وان أذكاهن وأقدرهن لابد أن تقع فريسة لاطرائك وملقك ومجاملاتك وســحر تظرفك ..

هو ذاك .. لا تغضب منى لانى افهمك ! .. فأنا لا أزعم انى خارقة الذكاء ، ولكنى أصارحك فى غير خجل بأنى فهمتك حق الفهم لانى أحببتك ! ..

نعم وا اسفاه .. لقد أحببتك حبا عميقا ، حبا جارفا، ولم يكن فى استطاعتى أن أفكر فى أحد سواك . فلما احتل خيالك ذهنى ، وملك طيفك أحلامى ، أمعنت النظر فى كل لمحة من لمحات نفسك ، وكل نظرة من نظرات عينيك، فأدركت اخر الامر أنى لم أعشق انسانا .. بل عشقت وحشا ضاريا يفترس للذة الافتراس ، ويعب فى الدم كما يمكن أن يعب المدمن فى نهر من الخمر ! ..

فيأيها الوحش الجميـــل .. ان ضعفك كامن فى أنك تنسى أنك وحش ، وتنسى أن العالم الذى تعيش فيـــه ليس هو عالم الغابة ، وتنسى أن هناك نساء غير متأهبات لمنح قلوبهن لوحوش !

وأنا من هؤلاء النساء .. انا لا أؤكل ثم أرمى . أنا

لا اعتصر ثم أنبذ .. انا لا أمتص ثم يلقى بى فجـأة فى عرض الطريق ..

كلا ياصاحبى .. ولهذا السبب عذبتك . لهذا السبب راوغتك . لهذا السبب تمنعت عليك ، وادميت قلبك ، وأبيت أن أكون زوجتك ..

وكيف ، كيف تريد أن امنحك نفسى وانا افهمك ؟ .. كيف تريد أن استسلم لك وانا اعرف غدرك ؟! لقد اردت اذلالك لتعرف نفسك ، وتعرف من أنا .. وتشعر ولو لاول مرة فى حيـــاتك ، بأنك اصطدمت بامرأة أقوى من سحرك ، وأقوى من ظرفك ، واقوى من الاعيبك ، واقوى من غضبة الوحش المفترس الجاثم فى عمق نفسك !

والحق انى ماعذبتك وتمنعت عليك الا لتعـرف معنى الالم .. فأنت لم تتألم أبدا .. لم تبك ابدآ . لم تنهزم ابدا .. ولكنك تألمت بسببى ، وبكيت من أجلى وهزمت شر هزيمة امام ارادتى وجمالى وسحرى ! .. لا تنكر .. لا تشمخ بأنفك على ! .. انا القوية وانت الضعيف .. أنا الثابتة وانت القلق .. انا المطمئنة وانت الحائر .. فابق هكذا وتألم .. ابق هكذا وتفطر .. واذا شئت أن تنصرف عنى ، فانصرف . اما اذا شئت ان تفوز بى ، وتظفر بحبى ، فعليك أن تحتمل طويلا ، وتصبر طويلا ، وتكافح طويلا ، وتثبت لى على مر الزمن انك أصبحت رجلا وفيا صادقا أمينا ، يمكن أن يحب امرأة واحـدة ، ويخلص لامـرأة واحدة ، ويرى مفاتن النســاء جميعا ممثلة فى امـرأة واحدة ! ..

هذا هو الحب .. وانا لا أقنع بغيره . فرض نفســك عليه ان استطعت أو فارحل .. ولكنك لو تمكنت من كبح

غرائزك ، والتسلط على نزواتك ، واخضاع ميولك واهوائك لحكم الوفاء لا لحكم الشهوة الوضيعة الرخيصة المتقلبة الشائنة .. فعندئذ ، وعندئذ فقط يمكن أن أثق فيك ، واقترن بك ، وأمنحك روحى وقلبى وجسمى الى الابد !

فالامتحان أمامك ، والثمرة فى متناول يدك !. فاذا كنت حقا رجلا ، وكنت حقا تحبنى ، فجز هذا الامتحان عن طواعية واختيار والا فاذهب .. آخرج .. آخرج من العالم المتمدين .. اخرج من المجتمع المتحضر ، وانطلق الى محيطك المحبوب .. انطلق الى الغابة ثم ابحث لك هناك عن حيوانة خليقة بك ، حيوانة لا امرأة ، تقنع منك بمجرد اللذة ، وتنشد بقربك مجرد المتعة ، ولا تعطيك من نفسها فى لحظة عابرة أكثر مما تعطى الكلبة للكلب !

هذه كلمتى الاخيرة أيها الوحش الجميل . . فأنعم النظر فيها ، واختر .. اختر بين الوفاء والغدر ، ثم أجبنى بكلمة .. بكلمة واحدة : اما وداعا واما ملتقى !..

***

ولقد أثرت هذه الرسالة فى نفس الشاب أول الامر ، فأخلص للفنانة اخلاصا أوشك أن يودع فى قلبها الثقة به .. ولكن طبعه كان اقوى منه ، فعاود سيرته الاولى ، فطردته شر طرد ، وظلت حريصة على نفسها حتى تزوجت!

خيانة واحتقار

« احبت الروائية المجرية روزموربسكو فى مطلع صباها شــابا خطبها ثم خدعها .. فلما اكتشفت الخديعة بعثت اليه بهذا الخطاب الذى كان آخر رسائلها اليه » :

لا أظن انك كنت تتــوقع أن أكتب اليك مثل هـــذا الخطاب • والحق انى أنا نفسى قد ترددت كثيرا فى كتابته • ولكنى بعد التفكير وانعام النظر ، رأيت من واجبى أن أكتبه ولو مزقت عباراته النارية قلبك وقلبى ! ..

من انت ياحبيبى ، وهل كنت اعرفك قبل ليلة أمس ؟. لا تضطرب .. لقد استيقظت فى النهـــاية وادركت .. أدركت انى كنت امرأة سليمة النية ، صافية السريرة ، ذهب الحب بعقلها ، فلم تستطع ان تتبين حقيقة الرجل الذى كانت على وشك أن تقترن به وتهبه كل حياتها !.

عشرة اشهر وثلاثة اسابيع ! . تلك هى ايام خطبتنا !. ذلك هو الزمن الطويل الذى قضيته بقربك ، أنعم فيــه بحبك ، واعتقد اعتقاداً راسخا أنى قد وجدت فيك مثلى الاعلى ! ..

المثل الاعلى أم المثــل الادنى ياصــاحبى ؟!. عد الى نفسك ، وثب الى رشدك ، وفكر فى الشخصية التى كنت تظهر بها أمامى ، وتستخدمها للتغرير بى دون ما وازع من

خلق أو ضمير ! .. لم تكن فى حبك رجلا بل كنت عبدا ، عبدا ذليلا خاضعا ، يمثل الوفاء المطلق أروع تمثيل ، حتى انى مع نفورى من رغبتك فى اذلال نفسك ، ومع تبرمي بميلك الى امتهان رجولتك ، كنت أعتقد أن هذا الذل الاختيارى أبلغ وأعمق دليل على صدق حبك ! ..

وهكذا خدعتنى .. خدعتنى فى لؤم وخبث ودهاء ، خدعتنى فى لباقة وسفالة وانحطاط . خدعتنى بمظهرك وانا لا أعرف انك كنت تخدعنى أيضا بسلوكك ، ولا تكاد تختفى عن بصرى حتى تطلق لغرائزك العنان ..

ولكنى أدركت كل شىء ليلة أمس فقط ! . أدركت لانى رأيت ! .. ويا لهول مارأيت !. كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا ؟. كيف طاوعك قلبك على تمزيق قلبى بمثل ذلك العبث المروع الذى هو والاجرام سواء ؟

كنت تعلم حق العلم انى مريضة ، وانى قد أصاب بالربو ، وانى أحوج ما أكون الى الراحة . وكنت تبصرنى منطرحة فى فراشى ، أقاوم المرض جهدى من أجلك .. فكيف فكرت فى ارتكاب جريمتك فى ذلك الظرف ، وفى تلك اللحظة ، فى تلك الليلة التى سهرت فيها بجوارى ، وطفقت تغنى وتنشد الشعر لى كى أنام على هدهدة أنغامك !

الا انك لفظيع ! . كيف اجترأت على مغازلة صديقتى فى بيتى ! .. كيف تجاسرت على ضمها الى صدرك ، وتقبيلها فى شعرها ، وفى عينيها ، وفى فمها ، تجاه فراشى ؟ ...
كنت تظن انى نائمة ، وأن أغانيك وأشعارك قد فعلت فى بدنى فعل اكسير خبيث ، وألقت بى فى ظلمة الرقاد الذى لا يشعر ولا يفهم . ولكنى كنت متيقظة .. كنت متنبهة

.. كنت من خلال عينى المغمضتين ومن خلال أهدابى المنهكة ، أراك على حقيقتك ، وأرى فيك شيطانا قدسته وهو يسخر منى ، ويلغ فى دمى ! ..

ولقد احترقت فى تلك الليلة أمس ، كما لم تحترق امرأة ! .. اكلت الغيرة صدرى ، ونهشت قلبى ، وحطمت ضلوعى ، وأسلست للمرض قياد بدنى ، فبت اليوم اتخبط فى سعالى ، وأرى الموت رأى العين ، وأنا لا اعى ! ..

أجل .. حرقتنى الغيرة ، ولكن البغض اسعفنى فتفوقت على الغيرة وصرعتها ! . البغض ؟ . كلا .. بل هو الاحتقار ! الاحتقار هو الذى خنق غيرتى !.. الاحتقار البارد ، الاحتقار المتكبر ، الاحتقار المعتز ، الاحتقار الذى يحيل المرأة المخدوعة الابية الى ملكة ، ويجعلها تركل بقدمها الضعيفة حبيبها الخائن الذى كان بالامس كل حياتها .. وانى لاحتقرك اليوم يا صاحبى وألفظك ، احتقرك ولا اكرهك بعد الآن لانى لم اعد اشعر بوجودك !

فاذهب ، فقد قتل احتقارى حبى وغيرتى ، وأعلم انى سابذل جهدى فى مقاومة مرضى ، حتى ترتد الى نضارتى ، ويرتد الى جمالى ، ويصبح فى مقدورى أن أستمتع بشبابى وحياتى فى صحبة رجل صادق ونبيل ، كلما أمعنت فى حبه ازداد احتقارى لك واشمئزازى ! ..

هذا خطابى الاخير .. وثق بأنى لو رأيتك مصادفة فى يوم من الايام ، فلن أعترض طريقك ، ولن أعاتبك بكلمة .. الوداع ..

قلب المرأة لا يموت

« هذه الرسالة كتبتها الاديبة الفرنسية « بلانش نادين » الى زوجها الكهل فى ساعة من اخطر ساعات حياتها . وقد انقذت بهذه الرسالة مستقبلها ومصيرها » :

اكتب اليك يازوجى العزيز وأنا خجلة من نفسى .. ولكن الطبيعة أقوى منى ، وهى التى تدفعنى ، وتملى على هذه الكلمات التى كنت اود من صميم قلبى الا أضطر الى كتابتها فى مثل هذه الحقبة من حياتى ..

انى الآن امرأة فى السابعة والاربعين من عمرى ، وقد انقضى على زواجى أكثر من خمس وعشرين سنة ، أصبحت فى خلالها أما وأنجبت ولدين تزوجا بدورهما وأوشكا آن يصبحا هما ايضا والدين ...

أجل .. هذه هى الحقيقة المرة . انا اليوم فى مهبط عمرى ونهاية طريقى ، تمتعت بكل شىء ، وعرفت كل شىء ، وسعدت بنعمة الزواج الموفق ، ونعمة الامومة المباركة ، ونعمة الطمأنينة والامن فى ظل حنان الرجل ووفاء الابناء .. ومع ذلك فانا اليوم اتعذب .. أتعذب عذابا لا حد له .. ولو انى تشجعت كما أريد أن أتشجع، وبحت لك بسر عذابى لاستولى عليك الدهش والذهول، واعتبرتنى امرأة مجنونة فقدت عقلها وفقدت كرامتها واستحالت الى مخلوق آخر عجيب غريب غير ذلك،

المخلوق الذى كنت تعرفه بالامس ..

على انى أحس انه يجب على أن اتشجع ، ويجب على ان اتكلم ولو سخرت منى ، وهزأت بى ، وإتخذتنى اضحوكة لك أيها الرجل القاسى القلب ، الانانى العاطفة، المتحجر الاهواء والميول ...

بيد أنك لو سخرت من اعترافى ، فلا بد أن أموت غما وكمدا وتكون انت قاتلى ! ... غير انى اعرف فيك جانبا من العطف والرحمة ما يزال حيا فى صدرك ، مضطرما تحت رماد أنانيتك وعبثك وقسوتك وعدم اكتراثك .. فهذا الجانب الحى هو الذى أريد أن أخاطبه الآن عساه أن يفهمنى ولو بعض الفهم ، كى يمد الى يد المعونة والغوث فينقذ البقية الباقية من حياتى وشبابى ...

فاسمع يا زوجى العزيز قصة نفسى ، واياك ان تضحك أو تسخر لان السخرية فيما يتعلق بمأساتي قد تعصف بعقلى ، وتقضى على شرفى ، وتجهز فى النهاية على

انى الآن وبعد ان زوجت ولدى الاثنين ، وانفصلت عنهما ، واصبحت أعيش معك وحدك ، اشعر بعزلة مروعة ، ووحدة قاتلة ، وفراغ هائل فى النفس تمرح فيه شتى الاخيلة والرؤى ...

لقد فقدت حب ولدى اللذين حملا الى زوجتيهما كل ماكانا يغدقانه على من آيات العطف والحنان . وهذا شىء طبيعى .. ولكنى احتملته أملا فى حبك أنت ، وعطفك أنت ، وحنانك أنت ، وشفقتك أنت .. كنت أنتظر بعد انفصال أولادى عنى ، أن أجد فيك ملاذا وموئلا ، ملاذا أهرع اليه ساعة ضجرى ، وموئلا أرتمى

فى حرارته الدافقة ساعة احس بفراغ نفسى وقلبى • هذا ما كنت اتوقعه ، ولكن ما اصطدمت به كان نقيض حلمى تماما ••

لم يلبث البيت أن أغلق علينا ، حتى انصرفت أنت عنى ، وأهملتنى ، وانقطعت لاصدقائك ، والفت السهر بمفردك خارج البيت فى المسارح والملاهى ، كأنك لم تعش يوما ، ولم تكن بالامس شابا ، ولم تظفر فى مطلع حياتك بأى شىء من نعيم هذه الدنيا ...

وهكذا خلفتنى فى عزلتى ، أعيش مع خادمتى ، واقرض فى ظلام الوحدة همى ، وأتلهف عليك ، واصبو اليك ، وتمتلىء نفسى بفيض من العواطف لا أستطيع ان أجد له منصرفا فيرتد الى صدرى ويوشك أن يخنقنى ! ...

هو ذاك ياصاحبى •• انى فى حاجة شديدة الى الحب ! .. لاتضحك منى ولاتعتقد أن فى وسعى أن أستغنى عن العواطف لانى قد بلغت السابعة والاربعين من عمرى ... ان المراة ياصديقى تحب زوجها أولا ، ثم تحب أولادها وزوجها ثانيا . ثم تفقد أولادها بعد زواجهم ، فتجمع كل عواطفها وكل أحلامها وكل مابقى لها من شباب وجمال وترصده على شخص واحد هو زوجها ...

أجل .. انها تفعل ذلك وهى كهلة .. انها تنشد الحب أيضا وهى على أبواب الشيخوخة .. ذلك لأن قلب المرأة لا يذبل أبدا يا زوجى العزيز ، وهو لا يمكن أن يكتهل ويشيخ الا فى اللحظة التى تلفظ فيها المرأة آخر أنفاسها !

فأنا اليوم أنزع الى الحب وان كنت كهلة .. أطلب

الحنان والعطف والرعاية والاهتمام اكثر مما كنت أطلبها وأنا شابة · ان الحياة توشك أن تفر منى ، ولذلك أحبها اضعاف ماكنت احبها وأنا فى مقتبل صباى وفى العشرين من عمرى ! ...

هذا مالا تريد ان تفهمه أنت · انك تقول فى نفسك ان امرأتك قد انتهت .. تزوجت وأصبحت اما وشاخت وانتهت . ولكن لماذا تفرض النهاية على ولا تفرضها على نفسك ؟ .. لماذا تريد أن تلهو انت بالحياة وتحرمنى انا منها ولاتشركنى فيها ؟ .. لماذا تريد أن تعتبر نفسك انسانا ثم تنظر الى زوجتك نظرتك الى جماد ؟ ...

الواقع أن وحدتى قد بدأت تجثم على صدرى كهم ثقيل ، وقد بدأت أشعر انى لابد أن أرزح تحت هذا الهم ، ولابد أن أنوء تحت عبء هذه الساعات الخطرة من حياتى ، الا اذا تداركنى رجل مازلت أريد أن يكون هو أنت ..

انك الآن تسخر أيضا .. ولكن حذار من السخرية فهى التى تحفر الهاوية السحيقة بينى وبينك وأنت لاتدرى ... فعد الى امرأتك ، عد الى وكرك ، وأذكر أنك انت ايضا فى مهبط العمر ، وان حياة العربدة واللهو التى تحياها لاتتفق لا مع سنك ، ولا مع كرامتك ، ولا مع مكانتك الاجتماعية ، ولا مع واجب الحرص على البقية الباقية من صحتك التى لن تجد لك درعا غيرها عندما يعصف بك الضعف وتنشب فيك الشيخوخة مخالبها ...

فاخمد فى صدرك جاذبية اللذائذ المحرمة ، تصن بدنك ، وتكسب نفسك ، وتمد فى عمرك ، وتشعر بالقوة

والسكينة والصفاء وأنت فى شيخوختك ! .. ان الحرمان لمن كان فى مثل سنك هو سبيل التمتع .. فبقدر ما تحرم نفسك من الشهوات الرخيصة ، والعواطف العنيفة ، والرذائل المنحرفة ، بقدر ماتتمتع بالصحة والراحة ونعمة البقاء الطويل فى هذه الدنيا ، وخير طريق يهبك هذه السعادة هو طريق البيت لا طريق الشارع ، هو قلب الزوجة لا قلب الفانية ، هو حنان الشريكة الوفية المخلصة لا طمع الغبي الكاذبة المخاتلة التى لايمكن أن تعرف الحب ولايمكن أن تقيم وزنا للاخلاص والتضحية

ان الحب فى بيتك ، فلا تتبرم به لأنك ألفته .. واعلم ان الشيء المألوف هو الشيء الباقى .. هو الشيء الذى صارع الايام واستطاع أن يتغلب على دورة الزمن .. هذه صرختى اليك .. فاسمعها ولاتضطرنى الى الرحيل . لأنى سأترك بيتى ، وألوذ بابنى الاكبر ، وأعيش فى كنفه ، ولو سامتنى زوجته شر ضروب الذل والهوان . أما اذا ضقت بعد ذلك ذرعا بحياتى وعجزت عن الصبر والاحتمال ، فسيكون التخبط والتشرد مصيرى ، وتكون انت الرجل الذى خدمته العمر كله قد قضيت على بيدك وأهلكتنى ..

***

واحدثت هذه الرسالة أبلغ الاثر فى نفس الزوج .. فثاب الى رشده ، وأقلع عن رذائله ، وعاش بقرب امراته أهدأ وأسعد حياة

صورة المرأة المثالية

« واليك صورة المرأة المثالية الكاملة تختلج حرارة وحياة في هذه الرسالة الفذة التي كتبها الروائي المسرحي « جان ايكار » عضو الاكاديمية الفرنسية الى زوجته التي كانت تصطاف مع ابنهما في احدى ضواحي باريس » :

في يوم من أيام الشتاء ، والريح تزأر والمطر يهطل ، والبرد يجلد الدم والاعصاب ، سألتني لماذا أحبك .. فاعرضت أنا عنك مقطبا حاجبي ولم أجب . كان الشتاء يخيفني منك ومن الطبيعة ومن نفسي .. كنت لا أعرفك على حقيقتك ولا أثق بك . وكان هذا هو شتاء روحي .. كنت من فرط ما كابدت من نزوات النساء اعتقد انك مثلهن غشاشة كالسحاب ، كثيفة كالضباب ، خاطفة كالبرق ، قاسية مستبدة كهدير الموج أو زئير الريح أو زمجرة العاصفة . أما الآن ، وبعد ان عرفتك ، وأمضيت في صحبتك اجمل وانضر اعوام شبابي ، استطيع في هذا اليوم الربيعي الشائق ، ان اجيبك على سؤال الشتاء ، وأن أقول لك لماذا أحبك ، في عبارات اتمنى من صميم فؤادي لو انها تصدح أمامك كالموسيقى ، وتدق حولك كطبول العيد ! .. لماذا أحبك ؟ .. احبك لاني كنت طائرا فاقتنصتني ، وشريدا فآويتني ، وضالا فهديتني ، سكبت في قلبي نعمة السكينة والاستقرار . أحبك لان بتسامتك الواضحة أخت الصراحة ، وضحكتك الرنانة

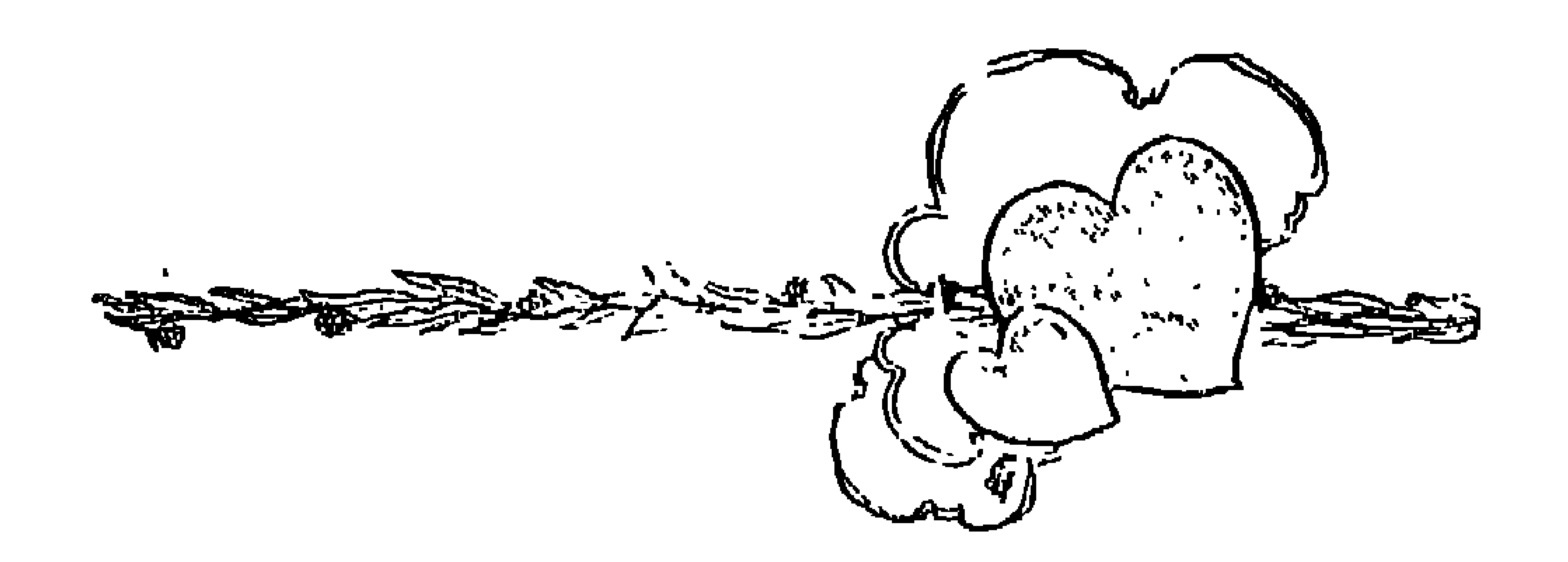
بنت البراءة ونظرتك الساطعة وليدة العزة والكرامة والترفع والاباء . أحبك لان ضميرك نقى لا يخالسه رياء ، وخاطرك ابيض لا يعكره دهاء ، ولسانك طاهر لا تلوثه النميمة ولا يعرف كيف ينفث السم فى الاعراض. احبك لان الناس يلهجون بذكرك فلا يأخذك الاطراء ، والقلوب تتبع طيفك فلا يفتنك الاغراء ، والكنوز تطرح عند قدميك فلا يستخفك مال ولا تذهب بلبك نشوة كبرياء . احبك لان العفة ثابتة فيك ثبات الايمان فى عمق القلب ، والوفاء راسخ فى صدرك رسوخ الشجرة فى بطن الارض ، والشرف شامخ فى نفسك شموخ المنارة فى عرض البحر ، والفضيلة متأصلة فى روحك تأصل الماء فى الينبوع ، أو النور فى الشمس .. لهذا كله احبك ، وأحب نفسى التى عرفت سر جمالك وقدرت فى عبادة وتمجيد نعيم حبك . فانا الآن انسان بفضلك .. انسان يقبل اروع وأنبل مافى الدنيا ، مادام يستطيع أن يضمك الى صدره ويقبلك !





الباب الثالث

من قصص الحب الخالدة



القربان



من أشهر قصص الحب فى الأدب الروسى هذه القصة التى وضعها الكاتب الذائع الصيت مكســـيم جوركى ، وتحدث فيها عن مأســـاة وجدانية غريبة وقعت له فى مطلع شبابه »

القربان

كنت فى مستهل شبابى واقعا تحت تأثير كاتبين كبيرين .. احدهما تولستوى والآخر فردريك نيتشه . وكنت ميالا بطبيعتى الى الاول .. أحب الشعب ، وأعطف على الفقراء والبائسين ، وأرى وجــــوب اقرار العدل والمساواة بين الناس واحـــــلال المحبة والرحمة محل ألانانية والعنف . ولكن عقلى النامى ، وذكــــائى المتقد ، وشعورى العميق بتفوقى ونبوغى ورغبتى الشــــديدة فى توكيد شخصيتى وابداع اعمال ادبية عظيمة تخلد اسمى على مر الاجيال .. كل هــذه العوامل كانت تشيع فى نفسى البسيطة الساذجة ضربا من الزهو والكبريــــاء يقربنى من فردريك نيتشــــه ، ويحبب الى تعاليم هـــذا الفيلسوف الالمانى القائمة على كره المحبة ، وبغض الرحمة ، والسعى الى التفوق والسيطرة ، والاشادة بفضائل التخشن والقوة ، واحتقار الضعف والضعفاء ..

وكنت من فرط تأثرى بهذا الفيلســـــــوف ، أومن ايمانا عقليا راسخا بأن من حق الانســـان العظيم، أو الانسان الذى يصبو الى العظمــة ، أن يعبث بالقـــوانين الموضوعة ، ويسخر بالعرف الاجتمــاعى ، ويسعى لخلق قانونه الخــــاص الذى يمهد له ســـبيل التفوق ، بحيث يســــتطيع ان يرغم الآخرين على احترامه ، ويجبرهم على الاعتراف بقيمته ، ويشعرهم بأن العبقــــرى مخلوق ممتاز ، وانسان اعلى ، لا يمكن أن يسرى عليه ما يسرى

على سواد الناس من آراء وأفكار وعادات ونظم ..

هذه الفكرة الطائشة الجامحة ، استبدت بى ردحا من الزمن .. وملأتنى غرورا وزهـوا ، وقطعت الصلة بينى وبين جوهر طبيعتى ، وأحالتنى مخلوقا قاسيا مستبدا ، لا يكترث للعواطف ، ولا يقيم أى وزن للفضائل الرقيقة الوديعة التى تصدر عن القلب البشرى

وفى غضون هذه الازمة العقلية النفسية التى عصفت بشبابى ، وأوشكت أن تخمد جذوة قلبى ، وتباعد بينى وبين دنيا العواطف ودنيا الاحلام ودنيا الحب : التقيت بفتاة ، كانت أول امرأة عرفتها ، وكان حبها الرائع الخارق العجيب هو الذى فصل فى مصير فكرى وفى مصير قلبى وحياتى ..

كانت تدعى ليزا سوكولوف ، وكانت بنت أحد المزارعين الاثرياء الاتقياء .. وكانت فتاة شائقة الحسن ، مشرقة الروح ، ذات عينين زرقاوين صافيتين ، وشعر كستنى جعد ، ووجه بيضاوى كوجوه القديسات ، وصوت ناعم رخيم ، وفيض من الآسى ينسكب من هيكل نحيل دقيق ، علوى الفتنة ، شعرى المظهر والتأثير ..

شغفت حبا بهذه الفلاحة التى كانت تفوق أعرق السيدات الارستقراطيات فى نبل النفس ، ولطف الحس ورقة الشعور .. شغفت بها ، وأردت فى الوقت نفسه أن تشغف بى ، وأن تسلس قيادها لسلطانى ، كى أمتحن بقربها قوتى ، وأخضعها لحكم شخصيتى ، وأطبق عليها تعاليم أستاذى نيتشه ..

وكانت الفتاة بريئة القلب والعقل ، ناضرة الاحساس والذهن .. فتفتح فؤادها للحب ، واستفاقت عواطفها

على دعوة الهوى ، فاستسلمت بجمع روحها وايمانها لى

ولم اكن جميلا ·· ولـكنى كنت خـلابا ·· كنت اتحدث اليها فيخيل لها أنى أضـع العـالم بأسره تحت قدميهـا · وكنت اخرج بهـا الى النزهـة فى الحقول والمروج والوديان ، فتحس لفرط ما يخلع حديثى على الاشياء والاشخاص من خيال وشعر ، أن الكون قـد ازداد جمـالا ، وأن فى السماء وعلى الارض آيات من الحسن كانت تجهلها ، وكانت لا تراها ، فكشفت انا عنها النقاب ، وصببت عليها اضواء يخطف بريقها الابصار ·· وكنت احب ليزا بكل قوى قلبى وعقلى وجسمى ، ولكنى لم أفكر فى اغوائها ، لم يخطر على بالى لحظة واحدة ان انتهك حرمة هيكلها المقدس فأغرر بها واعبث بعفافها ·· كنت اتطلع الى امتلاك قلبها فقط ، الى احتلال هذا القلب والاستئثار به والتصرف فيه ·· الى اخضاع هذه النفس لارادتى ، وتطويعها لمشيئتى ، والشعور حيالها بمتعة القوة والسيطرة والتفوق التى ولدتها فى نفسى تعـاليم الفيلسوف الالمانى أستاذى ..

واطمأنت ليزا الى ووثقت بى ·· احبتنى بكل طهرها ونقائها ، وجعلت تعلل نفسها بأن تصبح يومـا زوجتى · ولكنى ابيت أن أتقيـد بأى وعـد صريح ، ومضيت احاور واداور ، واعـرض واقبـل ، وأفتن فى ابتكار وسـائل الجذب والاغراء ، حتى آشتد ولع الفتـاة بى ، وفنيت عواطفهـا وأفكارها فى حبى ، وأصبحت ناضجة للتجربة الخلقيـة والنفسـية التى عـزمت أن

أطبقها عليها ، وأسومها عذاباتها ، تحقيقا لحلمى وتنفيذا لمبادئى ..

والواقع انى كنت اذ ذاك شاذ الميول والاهواء والنزعات . كان تأثير نيتشه قد استحوذ على ، وافسد خلالى الطيبة ، فأردت ان أمتحن قوتى لاعلم ليزا معنى القوة والتفوق وأجعل منها هى الاخرى تلميذة لاستاذى

وشرعت أقسو عليها لاعلمها كيف تقسو على نفسها وعلى الآخرين .. فرضت عليها البساطة المطلقة فى زيها والتجرد التام من كل اناقة ، وكل تبرج ، وكل رواء . زينت لها الخشونة باعتبارها رأس الفضائل .. اغريتها بالكبرياء والصلف والعزة ، والقيت فى روعها أن هذه الرذائل هى التى تميز الانسان الاعلى .. دفعتها الى ازدراء الفلاحين ، والسخرية منهم ، والترفع عليهم . رضتها على احتقار الضعيف ، وعلى التحفظ الجامد الشامخ معمن هم دونها فى المركز الاجتماعى .. دربتها على غطرسة الارستقراطيين وعجرفتهم .. أجبرتها على المشى الطويل ، والعمل المرهق ، وتحمل الجوع والظمأ ، كى تألف التقشف ويصبح فى مقدورها ان تكون سيدة نفسها وسيدة الاخرين . وكانت ليزا العاشقة الصابرة المدلهة ، تعتقد أن هذه أخلاقى .. فكانت تطيعنى حبا فى ، ومرضاة لى ، وتدليلا على اخلاصها المطلق ووفائها العميق ..

ولم أكن لاقدر صدق حبها بقدر ما كنت أعجب بسلطان ارادتى عليها .. كنت لا أنظر الى المرآة نفسها ، بل الى اثرى الواضح فيها . كنت لا أنظر الى قلبها الذى يحبنى ، بل الى عقلها الذى كان يجاهد تحت تأثير حبها كى يقلدنى ويقتدى بى ..

وزهانى هذا النصر ، وشعرت بلذة غريبة نادرة لم أشعر بها عمرى .. لذة التحكم فى فتاة جميلة ، ولذة التسلط على نفس بريئة ، ولذة صياغة شخصية وابداع فكر ، وخلق روح ..

ومع ذلك فقد لبثت أعتقد أنى مازلت أواجه ليزا الفلاحة الساذجة الطيبة ، وأن على أيضا أن أروضها ، وعلى أيضا أن أعلمها ، وعلى أيضا أن اصوغها ، كى ابدع منها مثلى العقلى الرائع المنشود ..

ومن فرط غرورى بنفسى ، وابتهاجى بفوزى ، وفرحى بطاعة الفتاة لى ، لم أستطع أن أتبين أول الامر على وجه الدقة عظم التحول الذى طرأ على أخلاقها ..

وفجأة ، وفى مثل لمح الطرف ، وجدتنى أمام فتاة أخرى ..

تبدل كل شىء فى شخصية ليزا .. نفضت عن كيانها غبار الضعف ، وأصبحت مخلوقا من عقل مجرد .. زايلتها عذوبة صوتها ، ودماثة أخلاقها ، ورقة حديثها ، وجاذبية وداعتها .. نشطت أعصابها ، واحتدمت قواها ، واتقد عقلها .. فغلظ قلبها ، وتحجرت عواطفها ، وغادرتها تلك الطيبة الصافية الساكنة الساحرة التى كانت مبعث فتنتها وسر جمالها ..

كانت أنثى فاستحالت الى انسان ، لا هو بالذكر ولا بالانثى .. استحالت الى منطق صارم جاف ، وفكر مستبد عنيد ، وعقل ضيق متغطرس .. فكانت تسرف فى التكبر على الناس ، وتسرف فى تحقير الجهلة وانصاف المتعلمين ، وتسرف فى اضطهاد الخدم ، وتسرف فى القسوة على الفلاحين الاجراء . وكانت تستبد بشخصها

هى أيضا ، وتحمل نفسها فوق طاقتها ، فتصوم عن الاكل الساعات الطويلة ، وترتدى الاثواب العاطلة الخشنة ، ولا تلزم الفراش اذا مرضت ، ولا تستقدم طبيبا ، ولا تعتمد على أحد فى دفع الاذى عنها ، أو فى تأدية واجب مفروض عليها ، أو فى معاونتها فى أى عمل من أعمال البيت ..

وليس شك فى أن ليزا اكتسبت من تعاليمى وتعاليم نيتشه فضائل ذات قيمة ملحوظة فى الحياة .. ولكنها لفرط ما أرادت أن تروق فى عينى ، بالغت فى توكيد تلك الفضائل .. فشوهتها ، وخرجت بها عن معناها ، وأضافت اليها ما ليس منها . وهكذا بدأت لى هى وفضائلها ، هى وتعاليمى ، فى سلسلة من الصور المنكرة الدميمة المسوخة ، روعتنى وألقت فى فؤادى شتى عوامل القلق والاضطراب والذعر ..

وتبدد طيفها الاول ، وانهار هيكلها الجميل ، وانعقد حولها جو كثيف من الكآبة والجهامة والصرامة ، قتل فرحها الغرير ، وخنق شعورها الحالم ، وأجهز على البقية الباقية من سحرها العذرى الذى فتننى ، والذى عرف قلبى من خلاله معنى الجمال ، ومعنى الحب ، ومعنى الحياة ..

ولم أستطع الا أن أنظر اليها وأرتعد .. كرهت فيها المخلوق الجديد الذى ابتدعته يدى . أبغضت فيها الصورة الشائنة التى رسمها عقلى . لعنت فيها النزعة الشاذة الاثيمة التى أولع بها خيالى . وكنت أتمرد وأثور وأتمزق اذ أبصرها تنهر خادما أمينا ، أو تظلم فلاحا مسكينا ، أو تنهال ضربا على طفل صغير لانه تجاسر واقتحم حديقة بيتها ، وقطف منها ثمرة أو زهرة .

وشيئا فشيئا ، وعلى مر الزمن ، بدات اتبين الاشياء بضدها ، والمس خطر مبادئى ، واراها كيف تنقلب الى رذائل وشرور عندما تطبق على الواقع المحسوس ..

وفى ضوء التحول الذى طرأ على شخصية ليزا ، استفاقت شخصيتى ، وتحرك جوهرها الاصيل ، وشرع يملأ نفسي ، وينتشر فى جوانب فكرى ، ويبكت ضميرى ، ويفعمنى شعورا بالاسى ، وميلا الى الندم والتوبة ..

وبينما كانت ليزا تقسو على الضعفاء ، كنت اشعر أنا بالشفقة عليهم . وبينما كانت تنهرهم ، كنت أود أنا أن أستغفرهم . وبينما كانت تظلم أو تضرب أحدهم ، كنت انا أتمنى لو استطعت أن أخف لنجدته واذود عنه ، وأقبل فى خشوع واتضاع موطىء قدميه ..

ثبت الى رشدى وصحوت .. ارتددت الى طبيعتى وأدركت . أما ليزا فقد أبت الا أن تبقى حيث أردت لها فى مبدأ الامر أن تكون .. عبثا حاولت أن أصدها عن تيارها .. عبثا حاولت أن أردها عن غيها .. عبثا حاولت أن أقنعها أنى كنت مخطئا ومذنبا وأحمق وطائشا ومجنونا .. لم تصدقنى .. أوجست خيفة منى .. خشيت ان هى ارتدت الى طبيعتها الاولى أن أعود فأنفر منها وأكرهها وأغدر بها ..

والعجيب أنها هى نفسها بدات تلومنى على ضعفى ، وتسخر من طيبة قلبى ، وتدفعنى الى الاقتداء بها ، وتحذرنى من عقبى العواطف الرخوة الناعمة المستخذية ، وتمجد أمامى فضائل القوة الغاشمة باعتبارها مثلا أعلى ..

وعندئذ هلع قلبى ، وارتعدت فرائصى ، ورأيت فى

ليزا الجديدة نقيضى ، وأيقنت أنى مهما حاولت ومهما جاهدت فلن أستطيع أن أبدلها مرة أخرى ، ولن أستطيع أن احب فيها الصورة التى خلقتها أنا ، والتى أصبحت بالرغم منى أكرهها ، وأمقتها ، وأرى فيها رمز الرذيلة وعنوان الاثم والشر ..

واستهولت الفتاة تحولى ، واستغربت انقلابى ، وحارت وذهلت ، واستحوذ عليها شبه يأس مروع مخبول ... أما أنا فقد تباعدت عنها واختفيت تماما .. فكانت لاتدرى ماذا فعلت ، وأى ذنب جنت ، وكيف ترانى ، وأين ترانى ، وفى أية بقعة من الارض يمكن أن تتصل بى .. فررت منها .. سافرت فجأة الى موسكو ، لم أودعها بكلمة ، ولم أبعث اليها بأى خطاب .. فجن جنونها واقتحمت دارى وسألت عنى . ولكن أهلى انتهروها وأوصدوا بابهم دونها .. ففضحت حبها ، وابتذلت نفسها ، وأراقت ماء وجهها ، وراحت تستفسر عنى من أقاربى وأصدقائى ، وتتوسل اليهم أن يرشدوها الى مكمنى ولكن على غير جدوى .. !

واذ ذاك فقدت حكمها على نفسها ، وعلى أعصابها .. فانخلع كيانها المعنوى ، واستوحشت ، ونفرت من الناس ، وهامت بالعزلة ، وأصيبت بشبه نورستانيا ..

وتطورت شخصيتها تحت تأثير حسرتها وخيبتها ويأسها .. فاتجهت بأفكارها وعواطفها وجهة دينية محضة . فكان يترامى الى أنها تصوم وتصلى ، وتقضى فى الكنائس نصف نهارها ، وتشترك فى أعمال الجمعيات الخيرية ، وتعيش فى عالم روحانى علوى وجدت فيه العزاء والسلوى ..

وحز فى صدرى أن أكون أنا السبب فى حرمان تلك الفتاة من التمتع بحظها فى هذه الدنيا ، فحزمت أمرى ذات صباح وعدت الى قريتها ..

ولكنى قبل أن أصل اليها وقبل أن أرى حبيبتى ، كانت ليزا قد خرجت من بيتها ، وارتدت ثوبا أسود ، وأرخت على وجهها نقابا كثيفا ، واتجهت بخطى ثابتة صوب دير للراهبات كائن فى أقصى القرية ..

فلما بلغنى النبأ ، تاه فكرى ، وتفطر قلبى ، ورزحت تحت عبء مسئوليتى ، وانطلقت من فورى كمعتوه ، واتصلت برئيسة الدير ، والتمست منها أن ترحمنى وتسمح لى بمقابلة ليزا .. بيد أن ليزا كانت قد ودعت الحياة ، ونذرت العفة ، وأصبحت عروسا للمسيح .. فرفضت مقابلتى وأبت أن ترانى وأرسلت تقول لى انها لاتفتأ تصلى من أجلى ، وتبتهل الى الله أن يغفر لها ولى ...

وتشبثت بباب الدير ، ووقفت استجدى الرحمة .. غير أن الرئيسة انصرفت وتركتنى . فتقطعت نياط قلبى ، واحسست كأن يدا قوية تخنقنى ، فهممت بأن أصرخ .. ولكن سكون الدير أذهلنى ، وجلاله أرعبنى ، فحنيت رأسى محطما متهالكا ، وخرجت وقد انفجرت من عينى الدموع !

***

ولبثت خاضعا لطيف ليزا كما يخضع الانسان لقدر محتوم يحلق ابدا عليه .. لم استطع أن انساها .. لم أحبب غيرها .. آمنت أنها هى التى أيقظت فى نفسى روح المحبة ، وعلمتنى معنى الرحمة . فآليت على نفسى أن

أمجدها فى عملى ، وأن أخلدها فى فكرى ، وأن أكفر عن ذنبى بوضع عقلى وقلبى وفنى وعبقريتى ، فى خدمة كل مسكين ضعيف ، وكل بائس محروم من أبناء البشر اخوتى ..

وهكذا عشت فى ظل ليزا .. وهكذا سأعيش أيضا فى ظلها ، مكافحا مجاهدا مستبسلا ، حتى آخر نسمة من حياتى التى قدمتها قربانا الى الشعب ، كما قدمت ليزا حبها وشبابها وحياتها قربانا الى الله ! ..



عابد الحب والجمال



اشتهر الروائى الكبير جى دى موباسان بكتابة القصص الصغيرة، ولكنه نبغ فى القصص الكبيرة ايضا.. وهذه هى احداها وتعتبر من اروع قصـــص الحب فى الأدب الفرنسى ..

عابد الحب والجمال

كان الرسام النابغة « اوليفييه برتان » فى نحو الاربعين من عمره ، ولكن روحه الساذجة كانت روح طفل تستكشف الحياة فى فضول دائم التجدد . وكان قد فتن باريس بلوحاته ، فأقبلت عليه العقائل النبيلات يتبارين فى أيهن تفوز بصورة لها من صنع يده ..

وكان خاوى النفس الا من حب الفن وحب الجمال ، لم يتعلق فؤاده أبدا بامرأة

وكاد أن يستقر ويرضى بهذا اللون من الحياة ، لولا انه دعى ذات يوم الى قصر الكونت « دى جيلروا » وعهدت اليه ارملة هذا الكونت برسم صورة لها ..

وكانت امرأة على جانب عظيم من الجمال ، رقيقة الاحساس ، سمحة الخلق ، فى عينيها الهادئتين حزن كمين ، وفى حديثها الخلاب ضرب من اليأس المتواكل المشوب بلوعة عميقة مرة ..

رسم لها المصور صورة بديعة أقر الجميع أنها خير عمل فنى تتمثل فيها شخصيتها . ثم جعل يتردد على القصر فتوثقت بينه وبين المرأة عرى الصداقة ، وأحس على دهش منه ان هناك قوة خارقة تدفعه الى رؤيتها ، والجلوس اليها ، والاستمتاع بحديثها ..

واستعذب الجو الجديد الذى حبته به الاقدار كنعمة

غير منتظرة ، فأشربه وجدانه ، وراح يقف عليـــه كل ما وسعته احلامه من سعادة وهناء ..

كان يخيل اليه أنه لم يعش حتى هــذه الساعة ، وان ما صادفه فى طريقه من جمال لم يكن غير وهم بددته هذه الحقيقة الفاتنة

وكيف لا تذهب بلبه فتنة هذه المرأة وهو الذى أمضى شبابه يبحث عن المرأة الكاملة .. المرأة التى تجمـــع فى اطواء روحها فضائل الانوثة من حنان وطيبـــة ورقة ، وفضائل الرجولة من استقامة ونزاهة وصراحة واخلاص .. وها هو ذا الان ، وقد اصـــاب الهدف ، وعثر على الضالة المبتغاة ، يلقى عصـــا الترحال ، ويحاول بكل ما أوتى من قوة أن يلهب فى كيان سيدة أحلامه تلك العاطفة العظيمة التى ظلت تعذبه السنين الطوال ..

***

وكان زوج الكونتس رجلا أرستقراطيا متغطرســـا جامد الحس ، غليـــظ القلب ، منصرفا الى الشـــئون السياسية وحدها ، لم يكلف أبدا نفسه عناء الاهتمـــام بامرأته الجميلة الساحرة .. فعاشت الكونتس منطوية على نفسها خانقة ميولها ورغباتها ..

وكانت لهـــا بنت تدعى « آنيت » ، تحبها الحب كله وتتعزى بها .. فلما مات الكونت ، احست ان حب ابنتها لم يعد يكفيها .. ولكنها جاهدت واحتملت وابت ان تفكر فى الزواج الا بعد ان تزوج ابنتها وتهيىء لها مســـتقبلا زاهرا

• واحس أوليفييه أن الكونتس امرأة شقية ومحرومة

وكان يعلم علم اليقين انها من المحال ان ترضى الزواج به حرصا منها على تأدية الواجب المقدس الذى استغرقها ، وخشية ان يؤثر زواجها بفنـــان على مستقبل ابنتها ، فازداد هياما بها وشفقة عليها ..

طارحها الهوى ذات يوم ، فثارت .. استنكرت منــه جرأته ، كادت أن توصد فى وجهه ابواب قصرها . ولكن الفنان كان رحب الصدر ، جم الاحساس ، عذب العبارة ، مدلها حيران ، تبدو على وجهه أمارات الضنى .. ويتفجر من حديثه ذلك الاسى العميق الذى كانت تحســه المرأة ايضا فى قرارة نفسها ..

انه جاثيا عند قدميها ، يتوســل ويستجدى ، ويلثم اطراف ثوبها ، ويدعوها لانقاذه من الوهدة التى لابــد لو حالفه اليأس ، ان يتردى فيها . وكان بارعا فى تصويره ، صادقا فى تهدج صوته ، ساحرا فى لون وجهــه الشاحب المكفهر الحزين .. فرثت المرأة لحاله ، ووقع من نفسها ألمه وعز عليها ان ترسل اليها الاقدار الرحيمة كل هذا الحب ثم تعرض عنه وتدعه لغيرها من النساء ..

وجاشت فيها العوامل المكبوتة التى حال المجتمع بينها وبين النماء ، وتصاعدت بغتة من حنايا ضلوعها وغمرتها .. فلم تستطع المقاومة ، وأقبلت على المصور ، واحتضنته وقبلته قبلة طويلة محمومة . فخيل الى الفنان عندئذ أن الطبيعة بأسرها قد عنت له ، وأن الحلم والحقيقة ، الفن والحياة ، المرأة والمجد .. كل هذه الروائع أصبحت ملك يمينه ، ممثلة اتم تمثيل وابلغه فى عيني هـــذه المخلوقة الشائقة التى لم يكن ليتصور منذ بضعة أشهر فقط أن فى وسعه ، وهو الرجل الشريد البسيط ، أن يرفع اليهـــا بصره لحظة واحدة ! ..

أما هى فكانت سعيدة كل السعادة بهذا الرجل النادر الوفاء والاخلاص الذى يجمع مفاتن العالم جميعا فى وجه واحد هو وجهها ، وطيف مختار هو طيفها .. وأما الفنان فقد تطور حبه واستحال الى عبادة حارة ، عبادة الحب والجمال ممثلين فى امرأة ممتازة ، لم يجد لها بين من عرف من النساء شبيها

ومرت الاعوام وتلتها أعوام أخر ، والمرأة تزداد ولعا ، والفنان يزداد هياما .. وعلاقتهما تتوثق ، والضجر أبعد مايكون عنهما ، والخلاف لاسبيل له الى قلبيهما

وسما بهما الهوى الى أوج المودة الهادئة ، فأصبح راحة كبيرة ، وحنانا غامرا ، ونعمة سابغة ، واتصالا بالفكر والروح لايعادله أى أتصال بالفريزة والجسد ..

ولكن الايام كانت تعمل فى الخفاء عملها ، وتحاول فى خبث وغدر أن يدمر صرح هذا البناء الرائع الذى شاده الوهم الخارق والحلم الجميل ..

لمحت الكونتس فى مفرقها أولى الشعرات البيضاء ، وأحس أوليفييه بالشيخوخة تنوء عليه ، وتنكر ملامحه ، وتكاد تقوض جسمه الرشيق . ولكن فرح الحياة كان مايزال يدوى فى صدره ، وعبادة الحب والجمال والشباب كانت ماتنفك تستأثر به ، وتخدعه عن حقيقة نفسه ، وتأبى الا أن تمثل أمامه الدنيا رافلة فى الحلل البهيجة التى كان يتعشقها أيام صباه .. وهل يستطيع فنان أصيل أن يودع الشباب على هذه الصورة ، أو أن يسمح للشيخوخة بأن تذله وتوصد دون أبواب النعيم ؟! ..

هذا العارض كان قوام شخصية أوليفييه .. هو

الذى دفع به الى حب الكونتس ، وهو الذى يعذبه الآن ويطارده ، ويحلق عليه كلعنة هائلة تحفر أمامه الهـــوة المظلمة السحيقة شيئا فشيئا !

***

وكان أوليفييه قد عرف آنيت ، بنت الكونتس ، فتاة صغيرة عابثة لاهية .. وحنا عليها حنو الوالد على ولده . وكانت الام قد أرسلت بها الى احدى المدارس الداخلية ، حيث مكثت الفتاة ثـلاثة اعوام لم يرها فى أثنائهـــا أوليفييه

وفى ذات يوم ، وقد أنبىء بأنها ســـتغادر المدرسة وتعود الى البيت ، فتح الباب بغتة ودخلت منه فتـــاة آية فى الحسن ، بســـامة الثغر ، وضاحة الجبين ، فى عينيها الهادئتين صفاء ملائـــكى مشرق يأخذ بمجـــامع الالباب

أقبلت على المصور ، وحيته أحسن تحية وجعلت تروح وتغدو ، تقفز وتتحدث ، خفيفة النفس ، بريئة الروح ، يتدفق فى جسدها الناضر دم متحمس فوار ..

تفرس فيها أوليفييه ، واذا هى صورة حية لامهـــا أيام كانت شابة !.. صورة عجيبـــة ومذهلة .. الفم القرمزى الصغير هو فم الام ، والصدر العريض صدرها ، والجبهة الناصعة جبهتها ، والصـــوت الرخيم صوتها ، والنظرة الوسنانة الحالمة هى نظرتها قبـــل أن تعكرها التجارب ، ويخمد جذوتها فعل السنين

أحس الفنان أن حياة حبيبته وحياته ، شبابهاوشبابه .. يتجددان أو هما قد تجددا بالفعل ، وبعثا فجأة فى هذه المخلوقة المقبلة على الدنيا بعـــزم ثابت ، وجأش

رابط ، وضحكة رنانة لاتحفل بهموم الحياة ، ولا تقيم وزنا لاى شيء ..

ودب فيه الذعر ، وسرت فى جسمه رعدة ، وطفق يتابع الفتاة بنظراته ، ويذكر بالرغم منه ساعات حبه الاولى . شرع ينقل الطرف من الفتاة الى أمها ، وهو لفرط دقة الشبه بينهما يكاد يخلط بين ماضيه وحاضره ، ولا يدرى أهو يحب الأم أم البنت ، وأيتهما أجدر بالعبادة وأخلق بالاجلال والتقديس ! ..

راجع نفسه ، واستهول تحوله ، وجعل يفكر فى حبيبته وفى صمتها واتزانها وهدوئها المتواضع الكسير ..

هدوئها ! .. يا للخيبة الفاجعة .. انه لاشبه بالركود الآسن منه بالهدوء العميق الجذاب ! . أين ذلك الهدوء من هذه الحياة الجياشة المصطخبة التى تجرف فى غير مبالاة كل ما يعترضها ، وتصوب أبصارها بعيدا .. بعيدا .. هناك .. حيث المستقبل الزاهر يسطع عليه الشباب ويحميه ! ..

وشاع الاضطراب فى نفس أوليفييه ، وتنازعته عوامل الحيرة والقلق والخوف .. حاول أن يفر من هذا البيت ، ان يختفى ولو بضعة أيام ، أن يخلو الى قلبه الجاحد ويحاسبه حسابا عسيرا ..

ولكنه عبثا حاول .. كان طيف الفتاة لايبرح مخيلته، وضحكاتها لا تفتأ ترن فى أذنيه ، وامتلاء بدنها الفض يلوح امامه ، فيقض مضجعه ويفعم ظلمة لياليه بالخيالات المروعة ..

وانصرف عن الام الى ابنتها ، يكذب على الاولى ، ويصطنع البساطة والبراءة والابوة ليظفر بنزهة أولحظة سمر مع الثانية ..

وأحست الكونتس بالخطر يهدد حبها ، ويهدد ابنتها على السواء •• كبر عليها ان تشـــيخ فلا تجد فيمن أحبته ملجأ ونصيرا • فكانت اذ تلفهـــا الوحدة ، تبكى وتتلوى حنقا وكمدا .. تبكى صباها الضائع ، ونكبة هواها ، وجنون حبيبها .. ثم تعاودها القوى فتثـوب الى رشدها ، وتهب من غفلتها ، وقد اعتزمت ان تفرق بين ابنتها واوليفييه مهما كلفها الامر من عذاب •• بيد أنها كانت لشدة عطفها عليه ، وتقديرها صدق عواطفه ، لا تبغضه بل ترأف به ، وترثى لحاله ..

أما هو ، فكان قد بدأ يحب الفتاة حبا عاصفا غلابا مبرحا دون أن يصارح نفسه جهرة بهواه ، ودون أن يتورع عن مقابلة الام ، ودون أن يشير أمامها ولو من طرف خفى الى ما قد يميط عن دخيلة قلبه اللثام .. ولكنها كانت تفهم كل شيء ، وتتجـــاوز عن كل شيء ، وتظن أنها لو تمكنت من تزويج ابنتها فقد تستطيع أن تنقذ كل شيء..

وأقامت الحفلات ، وعرفت ابنتها الى نفر من الشباب واختارت لها من بينهم زوجا هو المركيز دى فاراندال •• فتى فى مقتبل العمر ، لا يمتاز عن أقرانه بشيء ، ثريا عاطلا ، يقضى معظم اوقاته فى الاندية والصالونات

ولم يكد اوليفييه يفطن الى تدبيرهـــا حتى التهب فى صدره غرامه الجديد ، وأحس الغيرة الممزقة الفاتكة • استولى عليه ضرب من الشلل الذهنى الفظيع ، فكف عن التفكير ، وكف عن العمل ولاذ بالوحدة والتأمل • فروعت الكونتس اذ ابصرته يشحب على مر الايام ، وينفر من الناس وتعتريه فى بعض اللحظات شبه غيبوبة •• فيظل مطرق الرأس ، مسبل الاجفان ، يختلج اختلاجـا عنيفا ،

ثم تتقبض عضـــلات وجهه ، وتــكاد تطفر من عينيه الدموع ..

ومع ذلك فقد كان يطمح فى قرارة نفسه الى تخليد حبه الجديد الذى يعيش اليوم من أجله والذى يبصره كل يوم متجددا حيا فى شـــخص آنيت ، والذى خان فى سبيله المرأة التى أحبته وأخلصت له أعظم اخلاص . اراد أن يفوز من الفتاة ولو بعمل فنى ينقع به غلته ، ويخمد النار المتأججة فى عقله وخيـاله ودمه .. فدعاها ذات صباح الى بيته ، وثبت على القـــاعدة لوحتـــه .. واعتزم ان يخلق من الفتاة صورة يودع فيها مأساة حبه ويسميها « حلم الحياة » !

واقبلت الصبية مصحوبة بأمها .. وشرع الفنـــان فى الرسم منهوك الاعصاب ، مرتعش اليد خائر القـوى وكاد يضل سبيله ، ويراكم الاضـواء والالوان فى غير حذق ويفتضح .. بل كاد يصرخ ألما ويأسا ويبكى ، فأسرعت الام وأشارت الى ابنتها بالخروج لحظة ثـم تقدمت الى حبيبها ، وجذبته اليها ، وحدقت فيه ، وكاشفته بالحقيقة كلها ..

قالت له فى صرامة يمازجها الحنان والعطف انه يحب ابنتها ، وان عليه ان يرتد الى صوابه ، ويشفق على حياته ، ويفكر فى مستقبل الفتاة ، ويبتعد أو يرحل أو يحتجب عدة أســابيع ريثما يتم عقد قران آنيت على المركيز .. فتهاوى الرجل ، وتــداعت البقية البـاقية من عزيمته واعترف للكونتس بأنه يحب ابنتها لأنه يحبها هى ،وأن مقياس حبه لها هو هذا الغرام المحرم الذى يشـــعر به اليوم نحو ابنتها .. واستحلفها بكل عزيز لديهــا

الا تحكم عليـــه حكما قاسيا ، والا تحول بينه وبين رؤية آنيت ، وأن تمنع زواجها بضعة أشهر أيضـــا حتى يتم هو رسم صورتها ويستريح .. ولكن المرأة ثبتت فى موقفها ، وعادت تلتمس اليه ألا يتهور ، وأن يناشد عقاله الحكمة .. ثم صارحته فى قوة وعزم بأن ليس فى وسعها ارجاء موعد الزواج خشـــية أن يستفحل الخطب ، وتدرك الفتـــاة الحقيقة ، وتلفظ بالحـادث المخجل السنة الناس ..

وكانت عبارات الكونتس تصدرعن نفس أبية شماء، لا تحس الاشمئزاز ولا تعرف الكراهيـــــة بل تواجـه الواقع مواجهة جريئة ،وتفهم حق الفهم تقلبات الطبيعة ونزوات الفطرة وأحكام القلب البشرى ..

وانصرفت الام بعد أن وعدها المصور خيرا .. ولكنه لم يكـد يخلو الى نفســه ، ويفكر فى الفتـــاة ، حتى عاد شيطانها يجثم على صدره وشرع يصليه مر العذاب . استعرض حياته الراهنة ، فألفاها خاوية من كل أمل ، مظلمة الا من هذا الضياء البعيد الثمين .. فطفق يصرخ ويجأر ويهذى هذيان محموم ، ثم أحس لاول مرة ــ لاول مرة منذ سنين ــ ان الام التى طالما احبها فىالماضى هى الآن العقبة .. العقبة الكؤود فى سبيل سعادته .. فجن جنونه ، ولم يطـق النزول على ارادتها ، فأسرع وارتدى معطفه واختطف قبعته ، وخرج ميمما وجهه شطر القصر، ينشد رؤية آنيت ..

ودخل وكان البهو غاصا بالزائرين .. فتلقته الكونتس بهدوئها العادى ، وانتبذت به مكانا قصيا . ولكنه تملص منها ودار بعينه باحثا عن الفتاة ، مرتقبا مجيئها مرهفا أذنيه لوقع خطواتها . ثم أقبلت آنيت فحياها وسمع منها

هى أن زواجها سيتم ، وانها سعيدة بعرسها ، وافرة الثقة بالمستقبل والحياة .. فأحس الفنان أن قلبه يتفطر ،وعاد يلتمس الى الأم ارجاء موعد الزواج . بيد أن الكونتس قطبت حاجبيها ، وفى لهجة جادة حازمة صارمة طلبت اليه ان يكف عن زيارتها ، والا يعود الا بعد أن يتم الزواج .. فاصفر لونه ، وتداعت قواه ، وكاد ان يتقوض ويسقط . فخشيت الكونتس أن يفتضح امره ، فأمرته أن ينصرف حالا والا ساءت العقبى ..

وأظلمت الدنيا فى عينى الرجل ، وشعر بأنه يطرد طردا .. فخرج مترنحا ، يتعثر بأثاث الغرفة ، والدم يغشى بصره ، ودقات قلبه تكاد تخنقه . وما أن استقبله الشارع حتى انطلق هائما على وجهه لايدرى أين هو ، ولا الى أين يذهب ، ساهما تائها شريدا ، ينتحب ويبكى بكاء الاطفال ! .. فقد الشعور بأنه يمشى وسط الناس ، وأن الشوارع حافلة بالسابلة ، وانه يجب أن يتنبه ويستفيق ..

وفجأة صرخ أوليفييه بصرخة هائلة ، ومال على نفسه، ثم وقع على الارض لايعى شيئا ، وقد صدمته مركبة كبيرة ، ومرت عليه عجلاتها فأخمدت للفور صرخته وتركته مخضبا بالدماء ..

واسعفه نفر من السابلة ثم حملوه الى بيته وهو بين الموت والحياة .. اما الكونتس فلم يكد يبلغها النبأ حتى ملكها الرعب ، فأسرعت الى بيت حبيبها والدمع يترقرق من عينيها .. وماوطئت قدماها عتبة الغرفة حتى شاهدت الرجل الذى كانت تعبده مسجى أمامها ، شاحب اللون ، ضامر التقاطيع ، غائر القسمات .. فارتعدت فرائصها ، ولم تستطع الا ان أن تقف مذهولة مبهوتة وقد عقل الرعب لسانها ..

وتقلب الجريح على فراشه ، والتقت أبصاره بأبصار حبيبته القديمة ، وتفجرت عيناه بالعبرات .. فاقتربت المرأة منه ، فأخذها بين ذراعيه ثم قبلها واستغفرها ، وقال انه لم يكن مسئولا عن عواطفه ، وان القدر الغادر هو الذى أراد ما كان ..

وكان قد جمع رسائلها الغرامية ، فناولها اياها ، ورجاها أن تحرقها هنا .. فى الموقدة .. حرصا على سمعتها !..

فأطاعت وألقت بالرسائل فى النار ..

وشاع السكون فى الغرفة ، ولم يعد يسمع فيها غير أجيج النار فى الموقدة ، وزفرات الفنان الجريح ..

والتمعت جمرة من الجمرات .. فاستضاء بغتة محيا أوليفييه . فانحنت الكونتس عليه ، ولمست كفه المتدلية ، واذا هى رخوة باردة برودة الثلج . فنهضت والذعر يملأ قلبها ، وحدقت اليه .. فأبصرته ساكنا هادئا مستريحا ، يبتسم ابتسامة عذبة صافية كأنما هو سعيد بأنه قد عاش وتألم ومات ، لا من أجلها ولا من أجل ابنتها ، بل فى سبيل الحب والجمال ..



فى مهبّ العاصفة



« هذه قصة من أبدع قصص الحب فى الادب
الايطالى ، وهي للشاعر المشهور جبرييل دانونزيو »

فى مهب العاصفة

كان الفتى القروى « ريكاردو » لا يبلغ من العمر أكثر من ثلاث عشرة سنة . وكان يشبه الذئب الهائم فى العراء بحثا عن فريسة . ولكنه كان طيب القلب ، رقيق الحس ، فياض العواطف ، أعذب خلقا والطف نفسا من ماء الجدول الرقراق الذى ينساب فى وسط القرية التى يعيش فيها

وكان أسود الشعر ، ضيق العينين ، قذر الوجه ، يقتات من الثمار التى يسرقها من مزارع الفاكهة ، ويقضى سحابة نهاره فى الحقول ، متفيئا ظلال الشجر ، أو مرتميا على الارض الصلبة الحارة ، يمرغ بدنه اللين فى التراب تحت أشعة الشمس المتوهجة ..

وكان يرسل فى الوقت بعد الآخر ، صيحات متحشرجة تشبه عويل الطفل ، أو صرخات متقطعة مزعجة تشبه عواء الكلاب .. ذلك لانه كان أبكم لا يستطيع النطق بأية كلمة من تلك الكلمات الواضحة السحرية الجميلة التى ينطق بها جميع الناس ..

ولقد حدث أن سطت عصابة لصوص على كوخ فلاح فقير من فلاحى القرية ، فقام فى نفس ريكاردو أن يذود عن الكوخ ، ويمثل دور الرجل ودور البطل ، ويتحدى اللصوص . فانقض عليه اللصوص كالوحوش الكاسرة ، وقطعوا لسانه عقابا له على غروره وطيشه وتهوره

ولقد أوشك ريكاردو اذ ذاك أن يموت .. ولكنه نجا بأعجوبة . وما أن ارتدت اليه الحياة حتى ضاق صدره ذرعا بهمه ، واسخطه وأحنقه عجزه المطبق عن الكلام . فاسودت الدنيا فى عينيه ، فهجر المزرعة التى كان يعمل فيها ، وهجر كوخه المتحدب الصغير ، وهجر أمه العجوز البائسة .. وطفق يضرب فى انحاء القرية ، عارى القدمين ، مشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، ملتمسا فى حضن الطبيعة عزاء لقلبه وسلوى ..

وهكذا أصبح من فرط اللوعة والحسرة والحنق شريرا .. اصبح شريرا بالرغم منه ، وبالرغم من عوامل الخير التى كانت تستيقظ فى نفسه فجأة ، وتنبهه وتحاسبه ، ولكن على غير جدوى ...

ومضى يتصيد الطيور والحشرات ، ويفتن فى تعذيبها كما انطلق يضرب الاطفال ضربا مبرحا ، أثار عليه ثائرة القرويين جميعا ..

وكان يجد لذة عميقة فى الحاق الاذى بالغير .. ولكنه كان لا يلبث ان يحس خطر هذه اللذة على حياته ، حتى يسرع بالفرار ممن يتعقبه .. فيتسلق الاشجار العالية ، أو يندس فى الغابات الكثيفة ، أو يحتجب فى الصوامع النائية أو يرتمى كالحيوان المطارد فى أى مذود من المذاود القصية التى أعدت للماشية المريضة أو المصابة بالاوبئة

ولم يكن هناك انسان يعطف عليه غير الراعية اليتيمة المدعوة « كريستينا » ...

وكانت هذه الراعية فتاة فى مثل سنه ، ضامرة الوجه ،

نحيلة الجسم ، عذبة الصـــوت ، ذات عينين واسعتين متقدتين ، وخدين شاحبين غائرين ، وشعر أشقر مشنوش، يسترسل فى صخب لاهث مجنون على وجهها الداكن البائس المسكين ..

وكان ريكاردو قد أبصر كريستينا لاول مرة قابعـــة بجوار الجدول المتدفق وسط القرية ، تتأمل ماءه ،وتنصت الى خريره وهى تقضم كسرة خبز .. فدنا منها ، ورمق الخبز بنظرة متلهفة ولم يتحرك .. فرفعت اليه الفتـاة عينيها الوضاءتين ، وقالت وهى تقدم اليه كسرة الخبز :

ـ اليك هذه .. معى قطعة اخرى ..

فتناول ريكاردو كسرة الخبز فى هدوء واقترب أيضـا من الفتاة ، ولاح على شفتيه الدقيقتين المرتعشـــتين ظل ابتسامة ..

وشرع الصبيان يأكلان ونظراتهما تتلاقى ، وابتساماتهما تتجاوب ، وانفاسهما تتقارب وتتهافت وترتجف ..

وصاحت كريستينا فجأة وهى تحدق الى الفتى :

ـ من أنت ؟ .. ومن تكون ؟ ..

ففغر ريكاردو فاه المغضن ، وادلى بلســانه المقطوع ، وأرسل صرخاته المتقطعة المزعجة الشبيهة بعواء الكلاب .. فحولت الفتاة بصرها اشمئزازا ورعبا ، فامسك ريكاردو بها ، وربت على كتفها ، وترقرق الدمع من عينيه ، وغمغم كأنه يريد ان يقول لها :

ـ لا تذهبى ! .. ابقى بجوارى لحظة أخرى .. لاتنفرى منى أنت أيضا .. كونى طيبة يا كريستينا واشـــفقى على ! ..

فاختلجت الفتاة ، وجاهدت فترة لتبقى .. ولكن الرعب عاد فاستبد بها .. فنهضت مسرعة ، وتمتمت :

ـ الوداع ! ..

وظل ريكاردو يتبعها بنظره ، وهو ساهم شارد، وعيناه الزائغتان تتخطفان ذهب شعرها الاشقر ، وفضة بدنها الناضر ، ولمعة ذراعيها البضتين ، وأضواء قدميها المتوثبتين العاريتين اللتين لوثهما التراب

***

وألف ريكاردو التفكير فيها ، والبحث عنها ، والجلوس اليها .. فصدت أول الامر وتمنعت . فما زال بها يأسرها بصبره ويستعطفها بسحر ابتسامته ، ويستميلها بالحزن العميق الماثل فى عينيه ، حتى رق له فؤادها .. فراضت نفسها على قربه ، واستأنست فى النهاية به ، وراحت تجيبه ملهوفة الى سؤله ، أسعد ما تكون بشعور الرحمة الذى استغرقها ، وبدد رعبها ، وأنساها منظر الفم المغضن ، واللسان الاسود المشوه المقطوع ..

وكان اذ يلتقى بها ، ويجلس على العشب الاخضر تجاهها، ثم يميل فجأة برأسه الضخم على ركبتيها ، يحس كأن قلب الطبيعة بأسرها قد تفتح له ، وكأن كل ما فى الدنيا قد أقبل عليه ، وكأنه أصبح بين عشية وضحاها انسانا فذا خارقا عجيبا ، لا يتكلم فقط بل يصيح ويهتف ويهلل بلسان أوتى فصاحة كفصاحة النور ، وطلاقة كطلاقة الهواء ، واندفاقا رائعا كاندفاق السيل ..

وكانت كريستينا تنكمش فى حضنه كالهرة ، وتمرغ صفحة خدها فى شعره المموج الغزير ، ثم تقص عليه بصوتها

العذب قصة الساحر البائس الذى عشقته بنت الملك ..
فكان ريكاردو يصغى اليها ، وهو مهدهد على نغمات صوتها، ثم يضمها بغتة الى صدره ، ويلف ذراعه القوية حول خصرها .. ثم ينام وهو يحلم ببنت الملك ، وعبارات كريستينا تنصب فى أذنه ، وتخالط فكره وحواسه ، وتنساب فيه انسياب الخمر كى تذكى احلامه وتلهبها وتنفجر فيها انفجار الشمس ..

واقتدت كريستينا بريكاردو ، وأبت أن ترعى المواشى ، وانطلقت فى صحبة الفتى تقتات مثله بالفاكهة المسروقة ، وتقتحم مثله بساتين القرية ، وتنام مثله فى الازقة، والدروب، وتستهدف مثله لشتى المخاطر ..

وكان هو مأخوذا بجمالها ، مفتونا بصحبتها ، مزهوا بقربها .. يحملها تارة على كتفيه كأنها طفلة ، ويلقى بها على الارض أخرى كأنها لعبة . ويطلقها فى بعض الاحيان ثم يطاردها كأنها فريسة .. ثم ينقض عليها بغتة ، ويهم بتقبيلها ، فيحجم بالرغم منه وينثنى عنها وهو يضحك ويقهقه ...

ولما كان يضحك ، ويظهر فجأة لسانه الأسود المقطوع كانت كريستينا ترتجف ، وتحول البصر عنه مكرهة ، فيبتئس الفتى ويحزن .. فتكر عليه نادمة مستغفرة ، وتحتويه بين ذراعيها البضتين ثم تضحك هى الاخرى ..

واعتادت أن تفهمه باللمحة ، وتخاطبه بالنظره ،وتخضع له بالاشارة .. كما اعتاد هو ان يتكلم ويفصح بالحركة ، شاعرا أبلغ شعور وأوفره وامتعه انه أصبح أقوى وأعظم من أى انسان ، وأن رأسه وعينيه ويديه وسائر أعضائه قد استحالت كلها الى ألسنة حية ، تنبض بالعاطفة ، وتختلج بالفرح والنشوة والحياه ..

وقبل ان يفد الشتاء استولى على الارض شبه فتور حالم .. وتجمعت فى السماء بعض السحب ، وتجردت الاشجار من أوراقها ، ثم غام الجو واحلولك شيئا فشيئا، وبات من المتعذر على الشمس ان تغالب فى عزم ضربات الغيوم .. وشاع هذا الفتور فى نفس الصبيين ، ومازجته برودة خفيفة منعشة . فكانت كريستينا لا تثب على العشب الندى بل تتمدد عليه ، ولا تتمدد عليه فقط بل تتقلب فيه .. تتقلب وتتأوه وتتمطى ، وهى تنظر الى ريكاردو نظرة جانبية منهومة ساذجة فى رغبتها ، بريئة فى تلهفها ، لا تدرى ماذا تريد ، وماذا تنشد وتبتغى ...

وفى ذات يوم ، وقد اسكرت النسمات الرطبة العليلة بدن الفتاة .. ارتمت كريستينا على العشب الاخضر ثم زحت تحت وطأة التعب ، فعقدت ذراعيها خلف رأسها ، واغمضت عينيها الواسعتين ، وراحت فى سبات عميق .. نامت كما ينام الوحش المجهد الضال ، فلبث ريكاردو يتأملها وهو يلهث ...

لم يفهم لماذا هى قد خلقت الى هذا الحد جميلة، وماذا تريد الطبيعة بجمالها الفتان ، ولماذا هى الآن راقدة بجواره تحلم وتئن وتتلوى ، ولماذا هو مندفع اليها ، منجذب الى جثمانها ، يتفرس فى كل فتنة من مفاتنها ، ويرتعش وينكمش ويتراجع ؟ ! ...

وأمضه هذا الاضطراب الذى لم يعرف مصدره . فأراد أن يتحول به الى فرح خالص كى يتحرر منه . فتلفت حوله والدم يغلى فى عروقه ، ومشى بخطى وئيدة متلصصة، واتجه صوب شجيرة قطف منها بعض أزهار كبيرة .. ثم قفل راجعا وهو يزفر ، ونثر الازهار حول بدن الفتاة ، ثم دنا منها ، وانحنى عليها . وفى غفلة عن حواسه ، وقبل

أن تجرفه الموجة العارمة التى كان يحس سلطانها ويجهل سرها ويخافه .. أغمض عينيه التائهتين ، وتشـــجع ، واختلس من الفتاة أول قبلة ثم هرب ...

هرب وانطوى فى ركن بعيد وظل يضحك .. فاستفاقت كريستينا مذعورة ، وانتفضت ، ثم جمعت حول بدنها أطراف غلالتها البيضاء ، ثم عصف بهـــا الاضطـراب والجهل والخوف هى الاخرى .. فصاحت بالفتى :

ـ أمجنون أنت ؟! ..

ثم ابتسمت .. فتطلع اليها ريكاردو وتطلعت اليه . ولبث كلاهما ساهما شاردا محيرا .. يتفرس فى الآخـر ولا يدرى ما معنى هذه القبلة ، وما الغـــاية منها ، وما السر فى عنفها واتقادها ، ولماذا هى حارة وممتعة وشهية

***

وانقضت أسابيع طـــويلة ، وانتهت فترة التشـــرد الرائع فى الغابات والحقول ، واقبل الشتاء ..

اقبل الشتاء بسمائه المظلمة ، ورياحه المدوية ، وبرقه الخاطف ، ورعده القاصف ، وأمطاره الغزيرة التى تجلد البدن كالسياط ..

وأحس الصبيان أنهما فى حاجة الى مأوى ، وفى حاجة الى نار .. فأظلمت الدنيا فى عينيهما ، واوجسا خيفة من هبوب العواصف وهجمات الجليد . فانكمشا ذات مساء تحت جذع شجرة كبيرة .. وتبادلا النظر الحـائر القلق وهما يرتجفان ، وشرع كل منهما يفكر فى مصير صـــاحبه

وكانت كريستينا قد استمرأت لذة الحرية ، ونعمـة الحياة الوادعة الرخية المستهترة فى صحبة ريكاردو ..

فعز عليها أن تنفصل عن صديقها ، وعز عليها أن تعود وترعى المواشى ، فقالت للفتى الابكم وهى تنزوى تحت أغصان الشجرة الكبيرة ، وأسنانها تصطك ، ولفحات البرد القارس تسوط منها الجلد وتفرى العظام :

ـ لماذا لانذهب الى بيتك .. الى كوخك ؟. لماذا لا نقضى العمر هناك ، نزرع أرض سيد من الاسياد ، ونعيش معا فى ظل أمك الطيبة العجوز ؟ . أنا لم أرها ولكنى أشعر أنها طيبة .. لا .. لا أعتقد أنها يمكن أن تكون قد ماتت ! .. لايمكن ان يكون الله قد اذن بموتها ، لان الله لايمكن أن يتخلى فى مثل هذه اللحظة عنا ! . . أجل يجب أن نذهب ! .. الطريق بعيدة .. فهمت منك أن الطريق بعيدة جدا ، وان لامفر لنا من ان ننام الليلة فى العراء ! .. ولكننا لابد .. لابد أن نصل ! .. لابد ان نقطع الطريق ونصل ! .. لابد أن أرى الكوخ . . أرى بيتك ! .. لابد أن نعيش فيه معا يا ريكاردو ! . .

ولم تكد تصمت وتتحفز حتى اكفهر الجو ، وزأرت الريح ، وهبت العاصفة ، وتساقط المطر عنيفا متداركا كسيل من رصاص .. فأرسل ريكاردو صرخاته المزعجة المتقطعة ، وانهض كريستينا وهى تترنح ، وأومأ بيده الى الحقول البعيدة المترامية ، ثم تأبط ذراع الفتاة ، وانطلق بها وهو يثب ويهدر ويعوى عواء الكلاب الهائجة

واندفع الصبيان فى طريق الكوخ ..

اندفعا يغالبان العاصفة ، ويصارعان الريح ، ويتحديان البرد والمطر والظلام ..

وكلت أقدامهما من فرط العدو ، ورزحا تحت وطأة السيل المنهمر .. فاحتميا فى أحد المذاود فترة ، ثم أحسا

أن العاصفة لن تقر سريعا ، ولن تهدأ .. فعيل صبرهما، ولم يحفلا ، واستطردا السير ..

وكانت كريستينا تدفع ريكاردو وتشجعه ، وتمنيه وتبشره ، وتحث خطاها وهى منهوكة كى تقويه وتحفزه

واصفر وجه الفتاة بفتة وتطوحت .. أصابها شبه دوار وأوشكت أن تسقط . فحدق اليها ريكاردو فألفاها جاحظة العينين ، ممتقعة الخدين ، مخنوقة الشفتين ، تتحسس بيدها المرتعشة اطرافها المتجمدة ، وتشير فى خجل ويأس الى قدميها الصغيرتين المتفختين اللتين زايلتهما الحركة وأدماهما طول المسير ..

وتمزق قلب الفتى حنقا ورحمة ، فحمل الفتاة بين ذراعيه ، وأجال الطرف حوله وهو ذاهل ، وغامر وطرق بيتا من بيوت القرية ..

وما كاد صاحب البيت يفتح الباب ويبصر ريكاردو : ريكاردو الشقى الابكم المتشرد الباطش الشرير ، حتى انتهره فى حقد ، وسبه فى استنكار وسخط ، وهدده بالموت ان هو لم يرحل .. فتحول الفتى ، وأخذت عيناه عربة نقل كبيرة جاثمة بجوار البيت .. فأسرع اليها ، والقى بحمله تحتها ، وارتمى على الارض ، ومضى يتطلع الى كريستينا ..

ونظرت اليه الفتاة بعينين متقرحتين وغمغمت :

ـ انى جائعة ..

فتفطر قلبه ، وانخلع بدنه ، واحتواه اعصار جارف كالاعصار المنتشر حوله .. من أين يجيئها بكسرة خبز ، وهل من الممكن ان يتصدق عليه أحد من القرويين

بكسرة خبز ؟! . لقدأعماهم الحقد فلم تعد تعرف الرحمة الى قلوبهم القاسية سبيلا ! .. انهم يكرهونه ! . انهم يبغضونه ! .. انهم يتربصون به لقطع رأسه بعد أن قطع اللصوص لسانه .. ومع ذلك فيجب ان يعثر على كسرة خبز ! .. يجب أن يسعف كريستينا ! .. يجب أن ينقذها !.. يجب أن ينقذ المخلوق الوحيد الذى ابتسم له وترفق به وعطف عليه ، وأصبح فى قلبه وروحه ولسانه وعينيه ملء الدنيا ! .. لا .. لابد أن يسعف كريستينا ولو هلك ! ..

واندفع وطرق بيتا آخر .. فزجره صاحبه أيضا ، فلم يتراجع واسترحمه .. فصرفه الرجل متوعدا ، فألح ريكاردو فى السؤال .. فاستشاط غضب الفلاح القاسى، ونادى أولاده الثلاثة ، وانهالوا جميعا على الفتى ضربا بالايدى ، وخدشا بالاظافر ، وركلا بالاقدام . ثم تركوه ملقى على الارض صريعا واوصدوا الباب

وتحامل ريكاردو على نفسه ونهض .. نهض ثم سقط، ولكنه لم ييأس . فاستجمع قواه ، وانشب أصابعه فى الوحل وزحف ..

زحف صوب احدى الشجيرات ، وانتزع منها بضع أوراق مصفرة جافة متآكلة ، ثم إستدار ، واتجه نحو العربة ، ودفع بالاوراق الى كريستينا .. فازدردت الفتاة ورق الشجر دون ان تتأفف . ثم لمع البرق فأضاء محيا حبيبها ، فأبصرت الدم يسيل من جبينه وخديه ويترقرق عليهاهى ، فأقشعربدنها وصرختصرخة مدوية..وعندئذ فتحت نافذة البيت ، وأطل منها الفلاح وأولاده .. فخشى

ريكاردو أن يلحقوا به ويفتكوا أيضا بكريستينا .. فانحنى عليها ، وحملها بين ذراعيه ، وانطلق يعدو بها وقدارتدت اليــه قواه واحس ان فى مقدوره أن يطوع الحظ ويصرع القدر ويجوب الدنيا ..

وطفق يعدو واللعنات تتبعه ، والريح تسوطه ، والمطر يعميه ، والدم ينزف منه .. حتى لمح عن بعد ـ فى زاوية قصية من الحقل الاغبر الفسيح ـ مدخنة فرن صغير . فطارت نفسه شعاعا ، وحث خطاه .. فأبصــر الفرن تشتعل ناره ، وأبصر صبى الفران يستخرج من جــوف النار أرغفة مستطيلة متوهجة . فلمعت عينا ريكاردو ، وضم حبيبته الى صدره ، وهتف هتاف العزم والظفر ، واندفع يجمع قواه نحو الفرن وفى نيته أن يحصــل على الخبز بالحسنى أو ينتزعه انتزاعا ولو اضطر الى مقاتلة صبى الفران ..

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة الرائعة المنشودة .. فى تلك اللحظة الساحرة الخلابة التى رأى فيها ريكاردو راى العين أمل نفسه وقوة حبه وخــلاص حبيبته ، اشتدت جلبة العاصفة ، ثم هدأت بفتة ، ثم سمع فى الجو صوت زافر يشبه غمغمة طويلة مخنوقة .. ثم اضطربت السماء وماجت ، وتساقط منها الجليد على الارض خيوطا متعاقبة متناثرة ، سرعان ما اســتحالت الى كريات مروعة يلمع بياضها فى الظلام الدامس ..

وهبط قلب ريكاردو فى صدره ، وحث الخطى جهده .. ولكن صبى الفران الذى استشعر انقلاب الجو وخشى تراكم الجليد ، اسرع واطفأ نار الفرن . ثم انسل منه ، واغلق بابه بالمفتاح ، وتلفت يمنة ويسرة وهو مــذعور وانطلق يعدو ..

وغشى الدم عينى ريكاردو ، وتخاذلت ركبتاه ..

فقد الامل فى لحظة كما كان قد خالسه واقتنصه فى لحظة .. بيد أن حرصه على حمله الثمين أثاره واستنهض ميت قواه . فاندفع أيضا .. اندفع وهو مخبول .. ولكن الجليد الغاشم اعترضه ، وكسا الارض حواليه ، وحط عليه وعلى حمله كالطيور الجارحة .. فنظر الى كريستينا وهو تائه ، فألفاها متشبثة به كالغريق ، ساكنة الحركة ، جامدة النظرة ، محطمة البدن .. فحنى رأسه عليها ، وطفق يهزها هزا عنيفا . ولكن الفتاة لم تتنبه .. لم تتحرك .. لم تستيقظ .. فاستهول جمودها ، ومددها على الارض ، وارتمى عليها ، وجعل يتحسسها .. وما أن انعم النظر فيها وخالطت برودتها الصماء بدنه الثائر المتقد ، حتى جن جنونه وأرسل صيحة قاصفة وأدرك .. ادرك ان كريستينا النادرة ، كريستينا الغالية ، كريستينا الحبيبة الوفية المخلصة ، قد ذهبت .. ماتت .. اختفت فى لحظة .. فى لحظة واحدة .. ولن .. لن تعود ! .. فهدر كأن شريانا قد انفجر فى صدره .. ثم ارتمى على جثة حبيبته ، وعاد فاحتواها بين ذراعيه ، وانطلق بها يريد أن يحملها الى بيته ...

وظل يثب كالذئب الجائع ، والريح تسوطه ، والبرد يحزه ، واللوعة تحرقه ، وقطع الجليد تتساقط عليه ، حتى يبست اعضاؤه ، وجمد الدم فى عروقه ، وانهار فجأة بحمله وتقوض وانسحق واختنق ..

وغمر الجليد الارض وكساها حلة كبيرة بيضاء ..

وطلع الفجر وسمعت دقات اجراس كنيسة القرية ..

ومات ريكاردو الابكم تحت الجليد ، وفى حضنه حبيبته الراعية ..

مات الفتى وهو بكر .. وماتت الفتاة وهى عذراء !

فهرس

صفحة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هي سلسلة ثقافية كبيرة قامت بنشرها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ١٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ــ **عبقرية محمد (نفد)**
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ــ **ماجلان قاهر البحار**
تأليف ستيفان زفايج

٣ ــ **هرون الرشيد (نفد)**
تأليف المرحوم الدكتور احمد أمين

٤ ــ **أبو الشهداء (نفد)**
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ــ **جنكيز خان سفاح الشعوب (نفد)**
تأليف ف . يان

٦ ــ **قلب النسر**
تأليف أوكتاف أوبرى

٧ ــ **السيد عمر مكرم**
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ــ **غاندى : القديس الثائر**
تأليف لويس فيشر

٩ ــ **زعيم الثورة سعد زغلول**
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ــ **الزعيم احمد عرابى (نفد)**
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ــ **بطلة كربلاء (نفد)**
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ــ **اشعب أمير الطفيليين (نفد)**
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ــ **نفرتيتي ربة الجمال والتاج**
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ــ **حديث رمضان (نفد)**
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ــ **عبقرية خالد (نفد)**
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ــ **الذئب الاغبر مصطفى كمال**
تأليف الكابتن هـ . س . ارمسترونج

١٧ ــ **كليوباترة فى خان الخليلى**
تأليف محمود تيمور

١٨ ــ **الاسلام دين الفطرة**
تأليف الشيخ عبدالعزيز جاويش

١٩ ــ **لا تخف (نفد)**
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ــ **مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفد)**
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد
٢٢ ـ زينب (نفد)
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل
٢٣ ـ مذكرات عرابى
الجزء الاول (نفد)
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٤ ـ مذكرات عرابى
(الجزء الثانى)
تأليف الزعيم احمد عرابى
٢٥ ـ عبقرية عمر (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٢٦ ـ آمنة بنت وهب (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم
٢٩ ـ أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى
٣٠ ـ البؤساء (نفد)
تأليف فيكتور هيجو
٣١ ـ علمتنى الحياة (نفد)
لنخبة من علماء الشرق والغرب
٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى
٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم
٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيتر شتاينكرون
٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب (نفد)
لنخبة من كبار الكتاب
٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المنكسرة ـ الموسيقى
تأليف : جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان
٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلود هاوزر
٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى
٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم
٤٢ ـ الله (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز
٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان
٤٥ ـ نساء النبى (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور
٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم
٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب
٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج
٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد
٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم
٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه
٥٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الاول نفد)
٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٥٥ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٩٢ ـ سكينة بنت الحسين
بقلم الدكتورة بنت الشاطيء
٩٣ ـ روائع شكسبير (الجزء الثاني)
تلخيص شارل وماري لام
٩٤ ـ روائع شكسبير (الجزء الثالث)
تلخيص شارل وماري لام
٩٥ ـ آخر الطريق
بقلم أمينة السعيد
٩٦ ـ دروس من القرآن الكريم
بقلم الامام محمد عبده
٩٧ ـ حديث عيسى بن هشام
(الجزء الأول)
بقلم محمد المويلحي
٩٨ ـ حديث عيسى بن هشام
(الجزء الثاني)
بقلم محمد المويلحي
٩٩ ـ مذكرات نجيب الريحاني
بقلم نجيب الريحاني
١٠٠ ـ ليالي سطيح
تأليف حافظ ابراهيم
١٠١ ـ اعترافات شبابي
بقلم ليوتولستوي
١٠٢ ـ عجائب وأساطير
تأليف الدكتور شوقي ضيف
١٠٣ ـ المرأة في القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
١٠٤ ـ الملك والثوار في عربة
تأليف فتحي رضوان
١٠٥ ـ الدكتور زيفاجو (الجزءالاول)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٦ ـ الدكتور زيفاجو(الجزءالثاني)
تأليف بوريس باسترناك
١٠٧ ـ مذكرات محكوم عليه بالاعدام
بقلم فيكتور هوجو
ترجمة لطفي ساطان
١٠٨ ـ الاسلام في القرن العشرين
تأليف عباس محمود العقاد

١٠٩ ـ تيودورا الممثلة المتوجة
تأليف شارل ديل
ترجمة حبيب جاماتي
١١٠ ـ وثبة الاسلام
تأليف ابراهيم المصري
١١١ ـ طريقك الى السعادة
تأليف الدكتور جون ١ ، شندلر
ترجمة عبد المنعم الزيادي
١١٢ ـ أنت وفذاؤك
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
١١٣ ـ قلب وتاج
تأليف اميل لودفيج
١١٤ ـ الاسلام بين العلم والمدنية
للاستاذ الامام محمد عبده
١١٥ ـ ابو نواس الحسن بن هانيء
تأليف عباس محمود العقاد
١١٦ ـ عش مطمئن النفس
تأليف الدكتور فرانك سي .
كابريو
ترجمة عبد المنعم الزيادي
١١٧ ـ الحب ابو العجائب
بقلم فكري أباظه
١١٨ ـ عاصفة في قلب
بقلم صوفي عبد الله
١١٩ ـ عبقرية الامام علي
تأليف عباس محمود العقاد
١٢٠ ـ الامبراطورية الاسلامية
والاماكن المقدسة
بقلم الدكتور محمد حسين هيكل
١٢١ ـ مذكرات الامام محمد عبده
طاهر الطناحي
١٢٢ ـ الزواج السعيد
بقلم عبد المنعم الزيادي
١٢٣ ـ ذكريات الصبا والشباب
تأليف بوريس باسترناك
١٢٤ ـ المرأة في حياة العظماء
تأليف ابراهيم المصري

١٢٥ - **هذا طريقنا**
للرئيس جمال عبد الناصر

١٢٦ - **الانسان فى القرآن الكريم**
تأليف عباس محمود العقاد

١٢٧ - **سعادتك فى ضوء علم النفس**
تأليف د . لسلى ويذرهيد

١٢٨ - **غراميات فيكتور هوجو**
بقلم لطفى سلطان

١٢٩ - **يوميات طبيب**
بقلم د . كامل يعقوب

١٣٠ - **الساعات الاخيرة**
بقلم طاهر الطناحى

١٣١ - **قصة حياتى**
بقلم أحمد لطفى السيد

١٣٢ - **ضوء القمر وقصص اخرى**
تأليف أحمد حسن الزيات

١٣٣ - **فن الزواج**
تأليف الدكتور أمير بقطر

١٣٤ - **الفلسفة القرآنية**
تأليف عباس محمود العقاد

١٣٥ - **خديجة أم المؤمنين**
بقلم السيد عبد الحميد الزهراوى

١٣٦ - **الحب عند شهيرات النساء**
تأليف ابراهيم المصرى

١٣٧ - **تفسير الاحلام**
بقلم سيجموند فرويد
تبسيط وتلخيص الدكتور نظمى لوقا

١٣٨ - **أسطورة حب وقصص اخرى**
تأليف فتحى رضوان

١٣٩ - **طريقك الى الشباب الدائم**
بقلم الدكتورة مارجرى ويلسون

١٤٠ - **الاسلام دين الهداية والاصلاح**
تأليف محمد فريد وجدى

١٤١ - **رحلة فى دنيا المستقبل**
بقلم هـ . ج . ويلز

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم **الاشتراكات** بدار الهلال شارع محمد عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ومن جميع المكتبات الشهيرة ، واكشاك الصحف ، ماعدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــــراق : السيد محمـــــود حلمي ـ المكتبة العصرية ـ بغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص.ب ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel Tohmé,
Rua Basilio Jafet No. 127,
5" and Sal 54,
SAO PAULO — BRASIL

ســـيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

ســـنغافورة : M. Ahmed Bin Mohamad Bin Saman
Almaktab Attijari Assharqi
P.O Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

الحب الصحيح جهاد وبذل وتضحية .. لهذا لا يثبت على الحب الصحيح الا كل من سمت نفسه ، وعاف التقلب والتلون وطلب الملذات ، وكان فى طبعه وخلقه وروحه من المكتفين المتعففين الاقوياء

بهذه الروح اهتدى المؤلف فى جمع مواد هذا الكتاب ، وقد ضمنه تلخيصا مركزا لمؤلف الشائق الذى وضعته الكاتبة الفرنسية ((مارسيل تينير)) عن تاريخ الحب وطائفة مختارة من اشهر رسائل الحب الخالدة ، وبعض قصص عالمية تعتبر من أروع قصص الحب فى الادب الغربى